جوانب البناء القرآني للإنسان ودور العقيدة فيها: دراسة موضوعية عند سيد قطب من خلال تفسيره الظلال

THE QUR'ANIC ASPECTS OF HUMAN DEVELOPMENT WITH SPECIAL REFERENCE TO THE ROLE OF *'AQĪDAH* IN *TAFSĪR AL-ẒILĀL* OF SAYYID QUṬB: A THEMATIC STUDY

***Mohamed Amine Hocini*[*], *Mustaffa Abdullah*[**], *Fouad Bounama*[***]**

[*]Faculty of Theology. University of Karabük. 78100. Karabük. Turkey.
[**]Department of Al-Quran & Al-Hadith. Academy of Islamic Studies. University of Malaya. 50603. Kuala Lumpur. Malaysia.
[***]Faculty of Islamic Sciences. Al Madinah International University. 57100. Kuala Lumpur. Malaysia.

Email: [*]aminehocini@karabuk.edu.tr

DOI: https://doi.org/10.22452/afkar.vol22no2.10

Abstract

The study aims to clarify the Qur'anic aspects of human development and the role and effect of *'aqīdah* on it based on the thoughts of Sayyid Quṭb as in his *tafsīr* of *Fī Zilāl al-Qur'ān*. The problem statement indicates the need to identify the types, priorities and mechanisms of human development according to the Qur'an as described in *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*. It also aims to find out the position of *'aqīdah* in the development process as well as its relationship with other aspects. The study that used the method of thematic analysis shows the aspect of the Qur'an in human development as highlighted by Quṭb consists of four things namely, faith (*'aqīdah*), spiritual, ethical and intellectual. However, Quṭb seems to neglect the discussion on physical aspect. He is found to emphasize the aspect of *'aqīdah* as the

most important aspect and should be given priority, while other aspects are seen to firmly attached to it. These other aspects need to be consolidated and connected with each other. In addition, the study shows that each aspect needs to be developed through a specific mechanism such as various acts of worship like prayer, zakat and others.

Keywords: *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*; Sayyid Quṭb, thematic study; *'aqīdah*; human development.

Khulasah

Kajian ini bertujuan menjelaskan intipati al-Quran mengenai pembangunan insan serta peranan dan kesan akidah terhadapnya berdasarkan pemikiran Sayyid Quṭb yang tertuang dalam tafsirnya *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*. Penyataan masalah menunjukkan keperluan untuk mengenal pasti jenis, keutamaan dan mekanisme pembangunan insan menurut al-Quran seperti yang dihuraikan dalam *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*. Kajian ini juga bertujuan untuk mengetahui kedudukan akidah dalam proses pembangunan tersebut serta hubungannya dengan aspek-aspek yang lain. Kajian yang menggunakan kaedah analisis tematik menunjukkan bahawa aspek al-Quran dalam pembangunan insan seperti yang ditonjolkan oleh Quṭb terdiri dari empat perkara iaitu, iman (akidah), spiritual, etika dan intelektual. Walau bagaimanapun, Quṭb dilihat mengabaikan perbincangan mengenai fizikal. Beliau didapati menekankan aspek akidah sebagai aspek terpenting dan perlu diberi keutamaan, manakala aspek-aspek lain pula dilihat mempunyai hubungan yang erat dengannya. Aspek-aspek lain tersebut perlu disatukan dan dihubungkan antara satu sama lain. Di samping itu, kajian menunjukkan bahawa setiap aspek tersebut perlu dikembangkan melalui mekanisme khusus iaitu pelbagai amalan ibadah seperti solat, zakat dan dan lain-lain.

Kata kunci: *Fī Ẓilāl al-Qurʾān*; Sayyid Quṭb, analisis tematik; akidah; pembangunan insan.

مقدمة

إن الغاية الأصيلة من إنزال القرآن الكريم –كما ورد في تفسير الظلال– هي البناء بكلّ أنواعه، بناء الإنسان من جميع نواحيه، وبناء الحضارة بشتى مجالاتها، فالبناء هو لبّ القرآن الكريم ومهمته[1]. وأولى مراحل البناء تتمثل في بناء الإنسان، فهو أساس كلّ بناء، وهو صانع كلّ نهضة، فبصلاحه تصلح الأمم وتنهض وبفساده تفسد وتسقط، فلذلك كان جلّ تركيز القرآن الكريم عليه، فسعى إلى بنائه في شتى الجوانب والمجالات ليصبح مؤهلا وقادرا على ممارسة مهمة الاستخلاف وتأسيس حضارة قوية، ومعلوم أن عملية البناء القرآني للإنسان تشمل عدة جوانب مثل الجانب العقدي والروحي وغيرها، وهي تتفاوت من حيث الأولوية والأهمية. ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث، إذ يسعى إلى بيان جوانب البناء القرآني للإنسان وآلياته في تفسير الظلال مع بيان موقع العقيدة من عملية البناء وتأثيرها في الجوانب الأخرى.

تعريف موجز بسيد قطب وتفسيره في ظلال القرآن

سيعرض الباحث ترجمةً موجزةً لسيّد قطب —رحمه الله تعالى– وتعريفا مختصرا بكتابه "في ظلال القرآن".

أولا: ترجمة سيّد قطب:

[1] Sayyid Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2 (Cairo: Dār al-Shurūq, 2013), 825.

يعتبر سيّد قطب من أشهر المفسرين المعاصرين، والكتب طافحة بترجمته، فلذلك سيكتفي الباحث بذكر ترجمة موجزة له، مع الإشارة في الهامش إلى الكتب التي يمكن الرجوع إليها للتوسع أكثر في ترجمته[2].

اسمه ومولده: سيّد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، ولد في قرية (موشة)، بأسيوط، جمهورية مصر العربية، سنة 1387هـ، الموافق لـ: 1906/10/9م.

دراسته ووظائفه: درس بكليّة دار العلوم، وتحصل فيها على بكالوريوس في الآداب سنة 1933م، وشغل في وزارة المعارف عدة وظائف، كما اشتغل في جريدة الأهرام، وكانت له كتبات في بعض المجلات، مثل: الرسالة والثقافة.

نشاطه: بعد عودته من أمريكا سنة 1950م، استقال من وزارة المعارف لخلافات مع كبار المسؤولين فيها، وانضم في شبابه إلى حزب الوفد، ثم إلى جماعة الإخوان المسلمين وتقلد فيها بعض المسؤوليات مثل رئاسته لقسم نشر الدعوة، وكانت له جهود إصلاحية كبيرة، غير أنّه تعرض للسجن سنين طويلة.

2

اعتمد الباحث في ذكر هذه الترجمة الموجزة على الكتب التالية:

Khayr al-Dīn al-Ziriklī, *al-A'lām,* vol. 3 (Beirut: Dār al-'Ilm li al-Malāyīn, 2002), 147- 148; Aḥmad al-'Alāwnah, *Naẓarāt fī Kitāb al-A'lām* (Beirut: al-Maktab al-Islāmī, 1424H, 2003), 61; Ṣalāḥ 'Abd al-Fattāḥ al-Khālidī, *Sayyid Quṭb min al-Mīlād ilā al-Istishhād*. (Damascus: Dār al-Qalām, al-Dār al-Shāmiyyah, 1994), 15-17.

وفاته: تعرض سيّد قطب مثل غيره من أفراد جماعة الإخوان المسلمين إلى الظلم وزج به في السجن وعذّب فيه، وقضى به سنين طويلة، وصدر في حقه حكم بالإعدام ونفذ في 8/29/ 1966م. واستنكر هذا الحكم الكثير من علماء الأمة الإسلامية ومفكريها ودعاتها.

مؤلفاته: لقد ترك سيّد قطب –رحمه الله تعالى– الكثير من المؤلفات تقارب الثلاثين مؤلفا في الأدب والنقد والفكر الإسلامي، ومن أبرزها: النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، التصوير الفني في القرآن الكريم، في ظلال القرآن، العدالة الاجتماعية في الإسلام، معالم في الطريق، وغيرها من الكتب والمؤلفات الأخرى.

ثانيا: في ظلال القرآن

يعتبر كتاب "في ظلال القرآن" من أشهر الكتب التي ألّفها سيّد قطب، وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، ويقع في ثلاثين جزءا. واستعرض فيه المؤلف آراءه ومواقفه ونظرته للكثير من القضايا المتعلقة بالإسلام والدعوة إليه. وقد ذكر الدكتور الخالدي بأن هذا المؤلَف النفيس مرّ بأربعة مراحل، نذكرها موجزة هنا: – المرحلة الأولى: شرع في كتابته على شكل مقالات في مجلة "المسلمون"، – المرحلة الثانية: توقف عن كتابة تفسيره على شكل مقالات، ووعد القراء بأن سيخرجه في كتب مستقلة، كلّ جزء في كتاب، وذلك كلّ شهرين، وهو ما تمّ بالفعل، وقد أصدر في هذه المرحلة ستة عشر جزءا. — المرحلة الثالثة: لا تختلف هذه المرحلة عن سابقتيها اختلافا جوهريا إلا

في كونه أكمل تأليف الظلال في ظروف مغايرة في نهاية الخمسينيات، حيث كتبه وهو في السجن، وكان ما يكتبه يخضع للمراقبة الدينية قبل الإذن بصدوره من طرف الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله تعالى–.

– المرحلة الرابعة: وهذه المرحلة هي التي حصل فيها التميز والنقلة النوعية في تفسير الظلال، وذلك أن الفترة الطويلة التي عاشها سيّد مع القرآن الكريم في السجن والظروف التي مرت بها الحركة الإسلامية في مصر، مكنته من النظر إلى القرآن الكريم بنظرة أخرى، وفتحت عينيه على جانب من جوانبه لم يكن مطروقا من قبل، وهو الجانب الحركي للقرآن الكريم، وتفتحت بصيرته على هذا الجانب في الأجزاء الثلاثة الأخيرة، هنالك رأى ضرورة إعادة التفسير في ضوء هذا المنهج الجديد، فشرع في تنقيحه وطباعته من جديد، غير أنه حيل بينه وبين إكماله، حيث اعتقل ثم أُعْدِم –رحمه الله تعالى–، وكان قد وصل إلى الجزء الثالث عشر من القرآن الكريم[3].

يعتبر تفسير الظلال نقلة نوعية في ميدان تفسير القرآن الكريم، بل هو اللبنة التأسيسية وأول مساهمة للتفسير الحركي بما حواه "من معانٍ وأفكارٍ حركيّةٍ وتربويةٍ"[4]، ولكون مؤلفه حال كتابته كان

[3] Al-Khālidī, *Sayyid Quṭb min al-Mīlād ilā al-Istishād*, 544 & 548; Ṣalāḥ ʻAbd Al-Fattāḥ al-Khālidī, *Sayyid Quṭb al-Shahīd al-Ḥayy* (Turkey: al-Dār al-Shāmiyyah, 2016), 342 & 345. Ṣalāḥ ʻAbd al-Fattāḥ al-Khālidī, *Madkhal ilā al- Ẓilāl* (Amman: al-Dār ʻAmmār li an-Nashr wa at-Tawzīʻ, 2000), 42, 52.

[4] Al-Khālidī, *Sayyid Quṭb min al-Mīlād ilā al-Istishād*, 547; Al-Khālidī, *Sayyid Quṭb al-Shahīd al-Ḥayy*, 346; Al-Khālidī, *Madkhal ilā al-Ẓilāl*, 217.

يستحضر حركية القرآن الكريم وفاعليته في واقع الناس، فيسعى إلى الاستمداد منه لتلبية حاجيات عصره، فهذا سرّ تميز سيّد قطب — رحمه الله تعالى– وسرّ تميز كتابه "في ظلال القرآن".

نظرة سيّد قطب للبناء الإنساني والحضاري في القرآن من خلال الظلال

في هذا العنصر سنتطرق – بشكل مختصر– لنظرة سيد قطب لمستويات ومراحل البناء الإنساني والحضاري في القرآن، وذلك لمعرفة موقع البناء الإنساني في عملية البناء بشكل عام؛ فغرض هذا البحث كما سبق بيانه هو تحديد جوانب البناء القرآني للإنسان مع بيان دور العقيدة ومحوريتها ومركزيتها بالنسبة للجوانب الأخرى. فبيان مستويات البناء الإنساني ومراحله مهم جدا؛ إذ إنه يساهم في تكوين تصور متكامل حول المرحلة التي نحن بصدد تناولها مع بيان أهمية الجانب العقدي ومحوريته في جميع مراحل البناء ومستوياته.

يرى سيّد أن البناء الإنساني والحضاري في ضوء القرآن يمرّ على مستويات ومراحل، وذلك حتى يكون محكما، وذا أثر حقيقي وفعال في الواقع، فأول مستويات البناء القرآني يتمثل في عالم الضمير وميدان النفس البشرية؛ ذلك أن الإنسان هو الأساس الذي تقوم عليه الحضارة، وهو الخليفة في الأرض، ففي صلاحه صلاح الأرض والبشرية، وفي فساده فسادهما، فلذلك بذل القرآن الكريم جهدا جبّارا لإقرار منهج الله –تعالى– في الأنفس وجعله أولى الأولويات، وبذل

فيه وقتا طويلا يعالج النفوس يبنيها ويرممها ويمحو المعتقدات والقيم والتصورات الفاسدة ويؤسس لأخرى صحيحة وواضحة، ويبدو هذا واضحا في صنيع القرآن حيث ركزّ عند نزوله ولفترة طويلة جدا على الأصول الكلية للعقيدة مثل تثبيت وحدانية الله –تعالى– في النفوس، وتوضيح الغاية من الوجود الإنساني في هذا الكون، "مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية في عمومها، وربطها بأصول العقيدة"[5].

فإذا تمّ إقرار المنهج القرآني في النفوس والضمائر، جاء إقراره في واقع الحياة وعالم الحقيقة والمتمثل في إقامة المجتمع، ووضع شرائعه وتنظيم العلاقات داخل المجتمع المسلم وخارجه مع المجتمعات الأخرى[6]. فالعلاقة بين هذين المستويين تتجلى في أنّ بناء عالم الضمير يسبق عالم الحقيقة إذ هو الأساس له، فالأول يعتبر بناء داخليا والثاني يعتبر بناء خارجيا، فلا يمكن للبناء الخارجي أن يتحقق إذا لم يكن البناء الداخلي للإنسان محكما ومثبتا وقائما على أسس متينة.

فمعرفة مراحل المنهج القرآني في البناء ومراعاتها يعتبر أمرا مهما جدا، إذ لا يتصور الانتقال من مرحلة دون بناء التي قبلها، فلا يتصور قيام المجتمع المنشود دون أن يسبقه البناء الداخلي في عالم الضمير والأفكار والنفوس والعقول. كما لا يتصور من المجتمع المسلم

[5] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān,* vol. 6, 3855.
[6] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān,* vol. 1, 141 & 359 ; vol. 2, 741-742 ; vol. 6, 3855-3856.

أن يتمكن من أداء دوره الريادي في تخليص البشرية وإنقاذها من الجاهلية إذا لم يكن هو ذاته محكم البناء روحيا وخلقيا واجتماعيا وتنظيميا[7]. ومراعاة هذه المراحل يعتبر أمرا مهما جدا، حتى لا تحرق المراحل، ويؤتي البناء ثمرته البشرية.

وعملية البناء –في الظلال– لا تقتصر على بناء الإنسان وتأسيس حضارته كما سبقت الإشارة إليه، بل هناك مستوى آخر يعتبر من صميم عملية البناء والذي يتمثل في الوقاية والصيانة من العوامل التي تعرقل عملية البناء وتؤدي إلى فساد الإنسان والحضارة. وقد تشدد القرآن الكريم في قضية المفسدات والمعوقات كثيرا؛ لأنها بكل بساطة تؤدي إلى نتيجة واحدة ووحيدة وهي الانحراف عن أداء الوظيفة الوجودية المتمثلة في ممارسة مهمة الاستخلاف؛ وبالتالي يفقد المعنى من الوجود الإنساني في هذه الأرض، بل وينتقل إلى الجهة المناقضة تماما وهي جهة الإفساد فيشتغل بعكس ما أُمر به حيث "يغدو صاحبها مجرّد أداة للإفساد في الأرض، ولإهلاك الحرث والنّسل، ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية، مهما تحلّى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة"[8]. ويمكن تقسيم مفسدات الإنسان والحضارة من خلال ما ورد في تفسير الظلال إلى نوعين: مفسدات داخلية هي تلك التي ترجع إلى "العوامل المعقدة المتشابكة

[7] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 863; vol. 4, 2344.

[8] Muḥammad Sa'īd Ramaḍān al-Būṭī, *Manhaj al-Ḥaḍārah al-'Insāniyyah fī al-Qurān* (Dimashq: Dār al-Fikr, 1998), 24; al-Rhāghib al-Aṣfahānī, *Ṭafṣīl al-Nash'atayn wa Taḥṣīl al-Sa'ādatayn* (Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1408H, 1988), 31.

في تكوين الإنسان في ذاته" وهي عبارة عن تلك "الثغرات الطبيعية في النفس البشرية"[9]، ومفسدات خارجية: تتمثل في العوالم التي يتعامل معها الإنسان، مثل شياطين الإنس والجنّ، الذين يستغلون تلك الثغرات في تكوين الإنسان الذاتي فينفذون منها ليفسدوه ويهلكوه[10].

فيتبين لنا من خلال ما تم استعراضه أن عملية البناء عند سيّد قطب كما وردت في الظلال تتم على مستويين متوازيين، مستوى البناء والتأسيس، ومستوى الوقاية والصيانة، وكلاهما مهم جدا لا يستغنى عن أحدهما بالآخر. والذي يهمنا في هذا البحث هو الحديث على إحدى أهم مراحل عملية البناء والتي تقع تحت المستوى الأول في المرحلة الأولى وهي بناء الإنسان من خلال بيان جوانبه وآلياته والدور المحوري والأساسي للعقيدة.

[9] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1305 ; vol. 4, 1882 ; Muḥammad al-Ṭāhir Ibn 'Āshūr, *Tafsīr al-Taḥrīr wa al-Tanwīr* (Beirut: Mu'assasah al-Tārīkh al-'Arabī, 2000), vol. 23, 145 ; vol. 22, 118.

[10] Quṭb, *Fī Ẓlāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1304-1305.

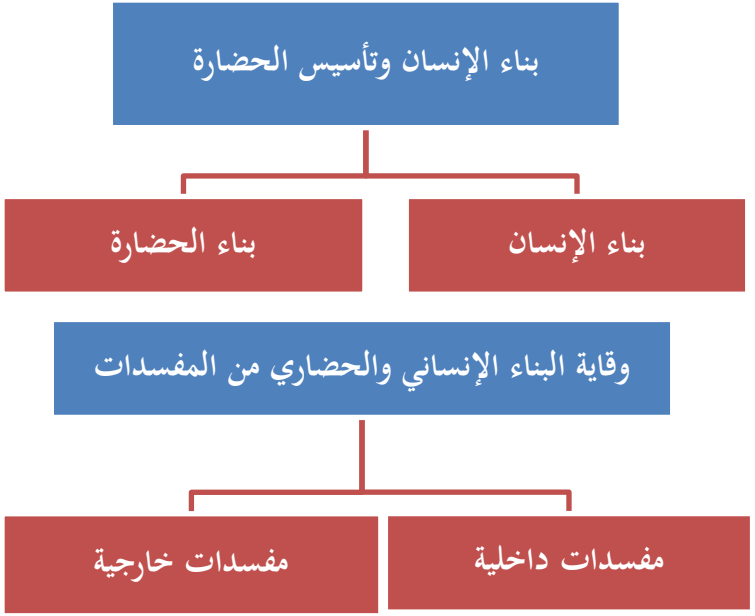

مخطط توضيحي لمستويات البناء القرآني للإنسان والحضارة

الجانب العقدي

يرى سيّدٌ أنّ الجانب العقدي من الأهمية بمكان في عملية البناء القرآني للإنسان، وهو أول جانب يشرع المنهج القرآني في بنائه، ويعتبره أولى الأولويات والأساس الذي تبني عليها بقية الجوانب، فاستقامة حياة الإنسان أو اعوجاجها يرجع أساسا إلى مدى صلاح أو فساد العقيدة التي يعتقدها، بل ويعلق سيد نجاح عملية البناء بشرط واحد وهو من صميم العقيدة كما سنستعرضه لاحقا، وفيما يلي بيان لأهم العناصر التي تطرق إليها سيّد عند حديثه عن البناء

العقدي للإنسان في ضوء القرآن الكريم بعد تعريف العقيدة لغة واصطلاحا.

أولا: تعريف العقيدة

العقيدة في اللغة من العقد؛ وهو التوثّق والشّد بقوّة، قال ابن فارس: "العين والقاف والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على شَدٍّ وشِدّةِ وُثوق، وإليه ترجعُ فروعُ البابِ كلها"[11]. وهي: "الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده. والعقيدة في الدين ما يقصد به الاعتقاد دون العمل؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل. والجمع: عقائد. وخلاصته: ما عقد الإنسان عليه قلبه جازماً به؛ فهو عقيدة، سواء كان حقاً، أم باطلاً"[12]. أما العقيدة في الاصطلاح العام فهي: "الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك. أي: الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك لدى معتقده، ويجب أن يكون مطابقاً للواقع، لا يقبل شكاً ولا ظنا؛ فإن لم يصل العلم إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة"[13].

فبعد تعريف العقيدة بمعناها الاصطلاحي العام، نأتي الآن لنعرفها في ضوء الاصطلاح الإسلامي، وهي: "الإيمان الجازم بربوبية

[11] Abū al-Ḥusayn Aḥmad ibn Zakariyyā ibn Fāris, *Mu'jam Maqāyīs al-Lughah*, taḥqīq: 'Abd al-Salām Harūn, vol. 4 (Beirut: Dār al-Fikr al-'Arabī, 1979), 87.

[12] 'Abd Allāh 'Abd al-Ḥamīd, *al-Wajīz fī 'Aqīdah al-Ṣalaf al-Ṣāliḥ* (Turkiā: al-Ghurabā', 1435H), 25.

[13] *Ibid*., 26.

الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم"[14]. ومما يلاحظ في تعريفات العقيدة –على اختلاف صيغها– اتفاقها على ضرورة أن يجزم المرء فيها جزما لا يتطرق معه إليه شكّ.

ثانيا: حقيقة العقيدة

لم يرد في تفسير الظلال تعريف للعقيدة بالمعنى الذي تم بيانه في العنصر السابق، ولذلك آثر الباحث أن يستعمل هنا لفظ حقيقة العقيدة لبيان ماهيتها عند سيّد قطب وذلك من خلال الوقوف على القضايا التي يركز عليها. وقد ذكر سيّد أنّ آيات القرآن الكريم كثيرة التركيز والتكرار لقضية الألوهية وخصائصها وقضية العبودية والصلة بينهما، وتعني قضية الألوهية أن الله –عزّ وجلّ– هو الذي يتحكم في العباد وفي الكون، وهو الذي يشرّع للبشر المناهج التي تحكم حياتهم، فإذا كان الأمر كذلك، فلا ينبغي للإنسان أن يعتقد أن مع الله –جلّ وعلا– شريكا في هذا الكون يتصرف فيه معه، ولا ينبغي له أن يصرف الشعائر لغير الله –تعالى–، كما ينبغي أن لا يستمد شرائعه وقوانينه إلا منه –سبحانه وتعالى–، فالغرض من التركيز على هاتين الحقيقتين هو تعريف الناس بخالقهم وتعبيدهم له، والتركيز على هاتين

[14] *Ibid.*

القضيتين اللتين تقوم عليهما العقيدة يُشعر أنّهما موضوع القرآن الرئيسي[15].

"والواقع أن تلك القضية الكبرى (قضية الألوهية والعبودية) هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة. فتعريف الألوهية الحقة وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده.. هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله.. وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها"[16].

ويعدّ سيّد قضية الحاكمية المطلقة لله عزّ وجلّ أهم أسس العقيدة الإسلامية، ومن مقتضياتها أن لا يستمد الإنسان الشرائع والقوانين والتصورات والقيم إلا من الله تعالى: "لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم، وليقيم عالما آخر، يقر فيه سلطان اللّه وحده، ويبطل سلطان الطواغيت، عالما يعبد فيه اللّه وحده – بمعنى «العبادة» الشامل– ولا يعبد معه أحد من العبيد، عالما يخرج اللّه فيه –من شاء– من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده، عالما يولد فيه «الإنسان» الحر الكريم النظيف.. المتحرر من شهوته وهواه، تحرره من العبودية لغير اللّه. جاء هذا الدين ليقيم قاعدة: «أشهد أن لا إله إلا

[15] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1255-1256 ; 1753, 1789. Ṣalāḥ 'Abd al-Fattāḥ al-Khālidī, *al-Manhaj al-Ḥarakī fī Ẓilāl al-Qur'ān* (Amman: Dār 'Ammār li an-Nashr wa at-Tawzī', 2000), 133.

[16] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1753, 1789; al-Khālidī, *al-Manhaj al-Ḥarakī fī Ẓilāl al-Qur'ān*, 133.

اللّه» التي جاء بها كل نبي إلى قومه على مدار التاريخ البشري... وشهادة أن لا إله إلا اللّه ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا للّه في حياة البشر، كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء، فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته.. وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن للّه شريكا في خلق الكون وتدبيره وتصريفه ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلّا للّه وحده، ولا يتلقى الشرائع والقوانين، والقيم والموازين، والعقائد والتصورات إلا من اللّه، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع اللّه. هذه هي قاعدة هذا الدين من ناحية الاعتقاد.."[17].

ويؤكد سيّد أهمية الحاكمية ومحوريتها في عملية البناء في كل مراحلها ومستوياتها بأن شدّد على حقيقة أن نجاح المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة معلّق بشرط واحد؛ وهو أن تتبع الأمة هذا المنهج في جميع شؤونها، وتسلم نفسها خالصة لقيادة الله –تعالى– وشريعته[18]؛ لأن الله –عزَّ وجلَّ– هو الذي خلق الإنسان، فهو –وحده– الذي يعرف عنه كلّ شيء، وهو –وحده– الذي يدبّر أمره أحسن تدبير، وهو –وحده– صاحب الحق في أن يرسم له منبع حياته، وأن يشرّع له النظم والقوانين، وأن يرسي له القيم والموازين التي يتبعها ويرجع إليها، فالرجوع إلى المنهج القرآني في البناء يعتبر ضرورة،

[17] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1255-1256.
[18] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 529-530.

إذ لا يستقيم بناء للإنسان وحضارته إلا في ضوء هذا المنهج، لأنه المنهج الوحيد الراشد القاصد وما عداه سفه وجاهلية[19].

كما يرى أن هذا المنهج لا بدّ أن يؤخذ كله، فلا يمكن أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه، فليس هناك إلا اتجاهان، إما طريق الهدى الذي هو طريق الله –تعالى–، وإما طريق الضلال الذي هو طريق الشيطان، وعلى المسلم أن يكون حاسما في موقفه، فليس هناك مناهج وتصورات وشرائع متعددة يأخذ أحدها أو يلفّق بينها، وبالتالي فعليه أن يتجرّد من كلّ تصوّر ومنهج وشرع غير الذي وضعه له الله –عزّ وجلّ–، وأن يتَّخذ القرآن المصدرَ والمنهج الوحيد الذي يستقي منه منهج حياته كلّها، في الاقتصاد والاجتماع والآداب والتقاليد والأقضية، وجميع أموره[20].

ثالثا: دور العقيدة

تؤدي العقيدة دورا مهما جدا في حياة البشرية، فهي تهدف أساسا إلى تقويم التصور البشري حول القضايا الكبرى من الخالق وذات الإنسان والكون من حوله وبيان العلاقة بينها، ليثمر عنه تقويم حياتهم الباطنة والظاهرة[21]، ولتأهيل الأمة المسلمة لقيادة البشرية في ظل هذه العقيدة، يقول سيّد: "لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض

[19] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 13, 15, 173, 573-574 ; vol. 2, 638.
[20] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 15, 211, 582 ; vol. 2, 680, 912.
[21] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1157.

من بعدها، ولتكون منهجا عاما للبشرية جميعها ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق اللّه وفق هذا المنهج، المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ولغاية الوجود الإنساني، كما أوضحهما القرآن الكريم، المنزل من عند اللّه. قيادتها إلى هذا الخير الذي لا خير غيره في مناهج الجاهلية جميعا"[22].

رابعا: أهمية العقيدة

تعتبر العقيدة من أهم القضايا التي يبدأ القرآن الكريم ببنائها في الإنسان، ويستغرق فيها وقتا طويلا حتى يضمن ثباتها ورسوخها في نفسه، ومن ذلك استغراق المنهج القرآني للفترة المكية كلها –والتي دامت ثلاث عشرة سنة– في بناء العقيدة والتركيز عليها لمكانتها المهمة في البناء، وفيما يلي بيان لأهمية العقيدة ومكانتها المركزية في البناء الإنساني:

العقيدة هي الصلة الوحيدة بين الإنسان وربّه: فلا صلة تربط بين الله –عزّ وجلّ– وخلقه إلا العقيدة الصحيحة والعمل الصالح، والالتزام بمنهج –الله تعالى–، فمن تحقق بأسباب تلك الروابط فقد أقام الصلة بينه وبين الله –تعالى–، ومن ضَيّعها فقد قطع تلك الصّلة[23]. وزيادة على ذلك، فإن العقيدة هي أحقّ ما يجتمع عليه البشر، والعقيدة بالنسبة للفرد المؤمن هي كلّ شيء: وطنه وقومه

[22] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 186.
[23] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 680.

وأهله، ولا ينبغي أن يجتمع الناس على ما تتجمع عليه البهائم من المرعى والكلأ والقطيع والسياج[24].

العقيدة جاءت بها جميع الرسل: فالعقيدة التي جاء بها القرآن الكريم هي نفس العقيدة التي جاءت بها الرسّل والأنبياء جميعا، من نوح –عليه السلام– إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولقد كانت قضية العقيدة شغل إبراهيم –عليه السلام– الشاغل[25]. وإمعانا في بيان وحدة العقيدة التي جاء بها الأنبياء، حتى على المستوى اللفظي، فقد وحّد الله –عزّ وجلّ– ألفاظ الأنبياء فقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: 59، 65، 73، 85. هود: 50، 61، 84. المؤمنون: 23، 32)[26]. فوحدة العقيدة وتركيز الأنبياء والرسل عليها مع البدء بها يؤكد أهميتها البالغة في عملية البناء.

العقيدة هي المؤهل لوراثة الأمانة: فوراثة دين الله –عزّ وجلّ– ليست قائمة على قرابة دم، كما أنها ليست حكرا على أمّة أو جنس، وإنما هي قائمة على العقيدة والإيمان، فمن آمن بها ورعاها حقّ رعايتها من أي جنس أو في أي جيل فهو الأولى بها دون غيره، فهذا دين الله –تعالى–، ولا صلة بين الله –جلّ وعلا– وعباده إلا صلة العقيدة. وبالإيمان بهذه العقيدة وحسن رعايتها والقيام عليها

[24] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 12.
[25] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 115.
[26] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1147- 1148; vol. 3, 1304-1305; vol. 4, 1880.

استحقت الأمة الإسلامية وراثة الأمانة دون غيرها من الأمم من ذريّة إبراهيم –عليه السلام–[27].

أنّ العقيدة هي أساس كل بناء: من العقيدة ينطلق كلّ بناء، سواء تعلق ببناء الإنسان ذاته على المستوى الفردي، أم على المستوى الجماعي وذلك من خلال تأسيس المجتمع وتنظيم أموره ووضع شرائعه، وسواء كان هذا التنظيم وهذه الشرائع مرتبطة بتنظيم أحوال المجتمع المسلم على المستوى الداخلي أم على المستوى الخارجي بتنظيم أحواله مع المجتمعات الأخرى التي يتعامل معها[28]. فمن العقيدة تنطلق خطوات المنهج القرآني في البناء.

ويعلل سّيد سبب البدء بالعقيدة في عملية البناء بأمرين: الأول منطقي، حيث إنه لا يمكن مخاطبة النفوس بالتشريعات والتنظيمات والتفاصيل الأخرى قبل أن تعترف بالجهة التي تتلقى منها هذه التفاصيل، وذلك بأن تخلص لله –عزَّ وجلّ– أولا، وتقرّ له بالعبودية، عن طريق قبول شرعه وحده ورفض ما سواه، فهذا هو الترتيب المنطقي والصحيح والواقعي. وزيادة على ذلك، يرى سيّد أنّه لا بدّ أولا من إيجاد الفرد والمجتمع اللّذيْن يقرّان بعقيدة التوحيد، فإذا قاما فإن المنهج القرآني يشرع – حينئذ – في بنائهما[29].

[27] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 111.
[28] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 728.
[29] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1009-1010.

ويرجع الأمر الثاني إلى أن النفوس إذا أُشربت العقيدة فإنّها ستكون مستعدّة لقبول أيّ شيء يأتيها من عند الله –عزّ وجلّ–، وبأنها تستسلم للمنهج القرآني حتى قبل أن تعرف تفصيلاته وتشريعاته، وتتلقاها بالقبول والرّضا، ولا تعترض على أي شيء من تلك التشريعات مهما دقّت أو جلّت لأنها تعرف أن في كل ذلك مصلحةً لها، ويتجلى ذلك في موقف الصحابة من إبطال الخمر وتحريم الرّبا والميسر وإبطال عادات الجاهلية كلّها، حيث بادروا أوامر الله –تعالى– بالقبول والتطبيق ولم يعترضوا عليها ولم يراجعوا النبي – صلى الله عليه وسلم– في تحريمها، ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يبذل جهدا كبيرا في تحريم هذه العادات الجاهلية حيث أنزل في شأنها بضع آيات أو حرَّمها ببضع كلمات من النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويرجع هذا إلى أنّ النفوس كانت مهيئة لمثل هذه التشريعات، وذلك باستقرار العقيدة في ذواتهم ورسوخها في نفوسهم، وهذا هو الجانب –أي العقدي– الذي بذل فيه المنهج القرآني جهدا كبيرا واستغرق في بنائه وقتا طويلا [30]، فهكذا يتبيّن أن التركيز على الجانب العقدي في البناء مهم جدّاً.

[30] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1009-1011.

وفي معرض بيان الحيز الكبير الذي تشغله العقيدة في الخطاب القرآني يقول عبد الحميد مدكور: "لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من حديث عن العقيدة في جانب من جوانبها، وينطبق على ذلك السور المكية والمدنية، والسور القصار والطوال، وهي تتناول أمور العقيدة في صور متنوعة: تعريفا بها، أو عرضا للبراهين الدالة على صدقها، أو مناقشة المخالفين لها ، أو بيانا لما يترتب على التصديق بها أو التكذيب لها من جزاء".

خامسا: أولوية العقيدة في البناء[31]

سبق أن ذكر الباحث عند نقطة أهمية العقيدة أن سيدا يعتبرها أساس كلّ بناء، وفصَّل فيها بعض الشّيء، في هذا العنصر سيستعرض بشيء من التفصيل سبب البدء بالعقيدة عند البناء وسبب إعطائها الأولويةَ وتقديمها على غيرها.

يرى سيّد أنّ أوضاع الجزيرة العربية –حال نزول القرآن الكريم– كانت في الحضيض على جميع المستويات، على المستوى الاجتماعي والأخلاقي وحتى القومي حيث كانت أراضي العرب وخيراتها تحت الفرس والروم، ولقد كان المنهج القرآني –عن طريق النبي صلى الله عليه وسلّم– قادرا على البدء بإصلاح وبناء أي مجال من تلك المجالات، فيعلن –على سبيل المثال– أنّ دعوته اجتماعية تسعى إلى رفع الظلم المتفشي في المجتمع وإلغاء الطبقية بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد، أو أن يعلن أن دعوته أخلاقية تسعى إلى إلغاء

See, ʻAbd al-Ḥamīd Madkūr, *Tamhīd li Dirāsāt 'Ilm al-Kalām* (Beirut: Dār al-Hānī li Ṭibāʻah wa al-Nashr wa al-Tawzīʻ, 2003), 50.

[31] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1005-1009; al-Khālidī, *al-Manhaj al-Ḥarakī Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, 132; Khayr al-Dīn Khūjah, *Manhaj Sayyid Quṭb fī Fahm Āyāt al-Da'wah min Khilāl Tafsīrihi fī Ẓilāl al-Qur'ān: Sūrah al-Anʻām Namūdhajan* (Malaysia: International Islamic University, 2000), 60-61; Āminah Muḥammad Nuṣīr, *Insāniyyat al-Insān fī al-Islām* (Cairo: Dār al-Shurūq, 1989), 35.

ويقول د. النجار في بيان أهمية العقيدة وأولويتها وصدارتها: "لا يمكن أن يحدث في حياة الأمة الإسلامية انتعاش معتبر... إلا بإصلاح عقدي يرشد تحمل الأمة لعقيدتها في النفوس من جديد موقع الدفع إلى العمل الصالح المعمر في الأرض المنمي للحياة."

See: ʻAbd al-Majīd al-Najjār, *Dawr al-Iṣlāḥ al-'Aqdī fī al-Nahḍah al-Islāmiyyah* (n.p: Majallah Islāmiyyah al-Maʻrifah, 1995), 57-58.

المنكرات التي تنخر المجتمع كالدعارة والخمر والميسر، أو يعلن أنّ دعوته قومية عربية تسعى إلى رد الاعتبار إلى العرب واسترداد أراضيهم وخيراتهم، فلو بدأ المنهج القرآني بأحد هذه المجالات لوجد إقبالا كبيرا من الناس وخاصة فيما يتعلق بالقومية العربية، حتى إذا حقق بعض الإنجازات ورأى الناس آثار هذا المنهج في الواقع العملي، دعاهم النبي –صلى الله عليه وسلم– –حينئذ– إلى عقيدة التوحيد وسعى إلى تعبيدهم لخالقهم، فلعلهم يستجيبون له، من غير أن يحاربوه أو يطردوه أو يقاتلوه، قد كان بالإمكان حصول هذا كلّه.

غير أنّ الله –عزّ وجلّ– –وهو العليم الحكيم– أدرى وأعلم بما يجب أن يكون، فاختار –سبحانه وتعالى– أن يبدأ بعقيدة التوحيد المتمثلة في لا إله إلا الله، بأن يعرف الناس ربّهم ويتجهوا إليه وبأن يتخذوه مصدرا يستمدون منه التشريعات والأوضاع والقيم لجميع شؤونهم الفردية والجماعية، الدينية والدنيوية الصغيرة والكبيرة. ولقد بذل في سبيل تقرير هذه العقيدة في نفوس الناس جهدا كبيرا واستغرق وقتا طويلا، وكان طريقا شاقا قاسى فيه النبيّ –صلى الله عليه وسلم– وقاسى معه المسلمون كذلك، فلمّا استقرّت عقيدة التوحيد في النفوس واتضحت السّلطة التي تنبع منها هذه العقيدة، ولما عرف الناس ربّهم وتوجهوا إليه وأفردوه بالعبادة، لما ترسّخت في القلوب: "لا إله إلا الله"، حصلت تلك النقلة النوعية الهائلة الشاملة في جميع الجوانب والمجالات وفي ظرف قياسي.

فبعد أنّ استقرت العقيدة في النفوس تطهرت الأرض من الفرس والروم، لا ليحلّ محلّهما سلطان العرب ولكن ليحلّ محلّه سلطان الله –تعالى–، كما تطهّر المجتمع كلّه من الظلم الاجتماعي بكلّ أنواعه، وارتفعت راية العدالة الاجتماعية في ظل النظام الإسلامي العادل، كما زكت النفوس وتطهّرت الأخلاق دون الحاجة إلى تطبيق الحدود الشرعية –إلا في النادر– لأنّ هناك رقابة قائمة في الضمير دافعها الخوف من الله –عزّ وجلّ– والطمع في رضاه. إنها العقيدة التي استقرت في النفوس هي التي أحدثت هذا التغيير الهائل، ورفعت البشرية إلى تلك القمة العالية المتميزة على جميع المستويات: النظام والأخلاق والحياة كلّها.

ويرى سيّد أنه لم تكن لهذه النقلة النوعية أن تحدث في حياة أولئك العرب لو بدأ المنهج القرآني بغير العقيدة، لأن العقيدة –بكلّ بساطة– هي الأساس، فلذلك لم يتجاوزها المنهج القرآني في الفترة المكية إلى أي جانب آخر وإلى أيٍّ من التشريعات والتفريعات المتعلقة بالحياة التي تقوم أساسا عليها، إلا بعد أن تأكد أنّها استوفت حقها من البيان والتوضيح.

ويردّ سيّدٌ سبب البدء بالعقيدة إلى أسباب متعددة منها ما سبق ذكره من أنّ الترتيب المنطقي يقتضي الاعتراف بالله –عزَّ وجلَّ– والتوجه إليه والاستمداد منه في كلّ الأمور في المقام الأول، ثم الشروع في التفاصيل، وأن النفوس إذا أشربت العقيدة واتضحت لديها

ورسخت فيها فإنها تصبح مستعدة لتلقي أيّ شيء بكلّ رضا وسرور. ويتمثل الأمر الآخر في أنّ بناء العقيدة وإصلاحها ينبني عليه استقامة بقية الجوانب وصلاحها، وأنّ كلّ فساد أو اعوجاج إنما مرده إلى فساد في الاعتقاد والتصور، فلذلك لم يشرع المنهج القرآني أول الأمر في معالجة تلك التقاليد الفاسدة والعادات الجاهلية من زنا وقتل وظلم اجتماعي لأنه كان يدرك جيّدا أن تلك العادات إنما هي مظاهر فقط، تقوم على جذور اعتقادية فاسدة، فعلاج تلك المظاهر قبل علاج الجذور التي تقوم عليها يعتبر جهدا ضائعا، والمنهج القرآني منزه عنه فكان الذي فعله المنهج القرآني هو اجتثاث التصور الاعتقادي الجاهلي من أصوله، واستبداله بالتصور الإسلامي الصحيح، فبيّن لهم التصور الاعتقادي الصحيح والجهة التي يتلقون منها شؤونهم جميعها كما بين لهم ضرورة التوجه إليه في كلّ شيء، فصلحت جميع أحوالهم وزالت تلك التقاليد والعادات الجاهلية تلقائيا لأن الجذور التي تقوم عليها قد اجتثت[32].

وفي المقابل يركز سيّد على أمر مهم وهو أنّ فساد التصور والانحراف في العقيدة لا يتوقف عند هذا الحدّ فحسب، بل يترتب عليه فساد الحياة في كل جوانبها الفردية والجماعية، لأنّ العقيدة تعتبر المحرك الأساس للحياة، فكلّما انحرفت برزت مظاهر الجاهلية في التصورات والأوضاع[33].

[32] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 972-974.
[33] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 866, 972- 974; vol. 4, 2177-2178.

سادسا: ثمرات العقيدة وآثارها: يذكر سيّد أنّ للعقيدة ثمرات وآثارا على الإنسان ذاته وفي حياته كلها، وتتجلى تلك الآثار فيما يلي:

العقيدة أساس التميّز والتفوق: إنّ العقيدة هي التي تصنع التميّز في حياة الأمّة، في شخصيتها وفي كيانها، وفي أهدافها واهتماماتها، وهي التي تؤهلها للقيام بدورها في الوجود وممارسة وظيفتها في الاستخلاف والمتمثلة في قيادة البشرية إلى الله –عزّ وجلّ–، فالعقيدة هي التي ترفع الأمة إلى مركز القيادة الذي كلّفت به، فإذا تخلّت الأمة عن هذه العقيدة وتنكرت لها فإنها ستفقد ملامحها وسماتها، ولن يصبح لها مكان يذكر[34].

وزيادة على ذلك، يتميّز التصور الإسلامي المتكون من أركان الإيمان بأنه متفوق على كلّ التصورات التي عرفتها البشرية قبل مجيء الإسلام وبعده، ومن هذا التفوق انبثق تفوّق الصحابة —رضي الله عنهم– في جميع المجالات: الأخلاقية والاجتماعية والتنظيمية وغيرها. ولا يزال هذا التصور "يحمل عنصر التّفوق" لكلّ من يؤمن به حقّ الإيمان، ويعمل بجميع مقتضياته من غير إنقاص ولا زيادة[35]. فإذا أرادت الأمّة التفوق فعليها أن تُقبِل على هذه العقيدة فإنّ عنصر التفوق منها ينبثق.

السّمع والطاعة: تنشئ العقيدة في النّفس إذعانا واستسلاما لله –عزّ وجلّ– ولكلّ ما يأتيها من عنده، ويتجلى ذلك في السمع

[34] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 129.
[35] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 774.

لجميع ما يأتيها من عند ربها، والطاعة والاستجابة لكل ما أمرها به، في كلّ صغيرة وكبيرة، وفي جميع الجوانب والمجالات، فإذا تخلّفت هذه الثمرة –السّمع والطاعة– بأن يعرض الناس عمّا أمر الله –تعالى– به، أو أن يستمدوا تصوراتهم من أحد سواه، فحينئذ يتبيّن أنّ في العقيدة خللا وخرقا كبيرا وأنها لا تؤدي دورها، وإلا فإن ثمراتها ستظهر على الواقع[36].

وبجانب ذلك، فإن من ثمرات العقيدة التي تظهر في النفوس التوقف عن فعل كلّ صغيرة وكبيرة حتى يُعرَف حكم الله –تعالى– فيها، وعدم التقدم بين يديه، فما سمح به الإسلام فهو الدستور والقانون، وما لم يسمح به كان ممنوعا وحراما. فلذلك نجد الصحابة –لما أشربت نفوسهم العقيدة– حريصين كلّ الحرص على معرفة حكم الله –تعالى– في كلّ شؤونهم الصغيرة والكبيرة، حتى يطابقوا بين تصرفهم وحكم العقيدة، ولهذا نجد الكثير من الآيات تدل على هذه الحساسية كقوله –تعالى– في مواضع متعددة: "ويسألونك"، فهذا الحرص آية الإيمان بهذه العقيدة[37].

الالتزام بالتشريعات والفضائل: إذا استقرت العقيدة في النفوس فإنها ستدفعها للالتزام بالتشريعات وتطبيقها، وتدفعها إلى الفضائل والخيرات، كما أنها ستقوم مقام الرقيب الداخلي للإنسان حيث تضبط تصرفاته وتحكمها وتحول بينه وبين المعاصي والمنهيات،

[36] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 343.
[37] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 179, 180, 220; vol. 2, 846.

في الظاهر والباطن، ولا يمكن لغير العقيدة أن تضبط تصرفات الناس الظاهرة والباطنة، ذلك أن القوانين والتشريعات والعقوبات قد تنجح في ضبط السلوكيات والتصرفات الظاهرة، غير أنها لا تقدر إطلاقا على ضبط السلوكيات الباطنة، لأن هذا من اختصاص العقيدة ووظيفتها[38].

العقيدة رحمة: تسعى العقيدة إلى استنقاذ النفس البشرية من الجاهلية وأوهامها، ومن الوثنية وأثقالها، لأن النفس تحت هذا الركام الهائل والثقيل تعاني التيه والتخبط، فالتصورات عندها غير واضحة وبخاصة قضية الألوهية، فعبدت ورجت وخافت غير الله –تعالى–، وعبدت نفوسا بشرية مثلها لا تملك لها نفعا ولا ضرّاً، فجاءت العقيدة فحررت الضمير البشري وأعتقته من ثقل تلك الأوهام والتصورات الفاسدة. وأوضحت له القضايا الكبرى والعلاقة بينها، فنجا الإنسان –بفضل هذه العقيدة– من تلك الأوهام التي أثقلت كاهله، وأفقدته كرامته، فاسترجع حريّته وصار قادرا على الوقوف مرفوع الرأس لا ينحني إلا لله –تعالى–، فبهذا يتجلى أنّ العقيدة "رحمة حقيقية للقلب والعقل"، وبتحرير الضمير البشري من تلك

[38] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1009-1010; Sulaymān 'Abd Allāh al-Zāmilī, *Muqawwimāt al-Shakhṣiyyah al-Islāmiyyah wa Asālīb Binā'ihā fī Fikr Sayyid Quṭb* (Gaza: al-Jāmi'ah al-Islāmiyyah, 2006), 51.

الأوهام والخرافات والتصورات الفاسدة، فإنه يصبح قادرا على الانطلاق في عملية البناء وممارسة مهمة الاستخلاف[39].

سابعا: كيفية بناء العقيدة: يؤكد سيّد في كثير من المناسبات أنّ طريقة المنهج القرآني في بناء العقيدة وترسيخها في النفس الإنسانية طريقة فريدة من نوعها، ما يدلّ على أنّها ليست طريقة البشر وإنما هي من عند الله –تعالى– خالق هذا الإنسان والعالِم بمداخله وبما يؤثر فيه. تقوم طريقة المنهج القرآني في بناء العقيدة على مخاطبة قلب الإنسان وعقله بدليلي الخلق والحياة المتمثلين في الآفاق والأنفس. غير أنّه لا يخاطبهما بخطاب جدلي، فلسفي، لاهوتي، جاف وميّت، لا يلامس القلب والعقل ولا يؤثر فيهما، كلا، بل يخاطب الإنسان عن طريق فطرته بخطاب واقعي وعملي من خلال الاستدلال بما في ذاته هو وما يحيط به دلائل وإشارات، فيسعى إلى استنقاذها من الركام وتطهير أجهزة الاستقبال من العوامل التي تتسبب في تعطل وظيفتها "ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها"[40].

---

[39] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 23, 24; vol. 4, 2402; al-Zāmilī, *Muqawwimāt al-Shakhṣiyyah al-Islāmiyyah*, 52; 'Abd al-'Ālī BayZikūb, *al-Ma'ālim al-Tarbawiyyah fī Ẓilāl al-Qur'ān li Sayyid Quṭb: Dirāsah Naqḍiyyah Taḥlīliyyah* (Malaysia: International Islamic University, 2015), 203, 204; Ibn 'Āshūr, *Tafsīr al-Taḥrīr wa al-Tanwīr*, vol. 7, 118; vol. 14, 52; Ibn 'Āshūr, *Uṣūl al-Nizām al-Ijtimā'i,* taḥqīq: Muḥammad al-Ṭāhir al-Musāwī (al-Urdun: Dār al-Nāfa'is, 2001), 88.

[40] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1011-1012, 1031; vol. 4, 2040, 2106-2107; al-Khālidī, *al-Manhaj al-Ḥarakī*, 131-132; Khalīl Qāḍī, *al-'Aqīdah 'ind Sayyid Quṭb: al-Manhaj wa al-Maḍāmīn, Dirāsah Taḥlīliyyah Naqdiyyah* (Algeria: Jām'iat al-Jazā'ir, Kulliyyat al-

فالله –تعالى– في بناء العقيدة يَكِلُ عباده إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على جميع البشر في ذواتهم أو فيما حولهم من المألوفات كالسماء والأرض والشمس والقمر وغيرها، وهذه الحقائق تفرض نفسها على الفطرة فرضا، ولا يسعها أن تردها إن كانت أجهزة الاستقبال فيها تؤدي وظيفتها وغير معطلة، فالله – سبحانه وتعالى– خالق الإنسان وخالق الكون يعلم أنّ هناك لغة مفهومة بين فطرة الإنسان وحقائق هذا الكون، فلذلك يوجهه إليها ويتركها تتفاعل معه، إذ هي أنجع وأعمق أثرا، ولهذا السبب يكثر المنهج القرآني من مخاطبة الفطرة الإنسانية "بهذه اللغة المفهومة"[41].

فهذه –إذن– هي الكيفية التي يتبعها المنهج القرآني في بنائه للعقيدة، يتوجه إلى فطرة الإنسان مخاطبا إياها بما في ذاته هو وبالحقائق الموجودة في الكون من حوله، وهذا هو أقصر وأعمق وأوسع طريق لبناء أضخم عقيدة في سهولة ويسر[42].

يرى الباحث أنّ طرح سيّد للجانب العقدي على النحو المفصّل أعلاه طرح مميز ومنطقيٌّ جدا، حيث اعتبر بناء الجانب العقدي أوّل جانب يجب أن يُشرع فيه في عملية البناء الإنساني

'Ulūm al-Islāmiyyah, 2012), 86-87; Khūjah, Manhaj Sayyid Quṭb, 117.

[41] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1084-1085 ; vol. 3, 1748-1749; vol. 6, 3466.

[42] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1767, vol. 6, 3467; Ibn 'Āshūr, *Tafsīr al-Taḥrīr wa al-Tanwīr*, vol. 8, 346; vol. 25, 42; vol. 29, 26; 'Uthmān Jum'ah Ḍumayriyyah, *al-'Aqīdah al-Islāmiyyah al-Manhaj wa al-Arkān wa al-Khṣā'iṣ* (n.p: Silsilat Da'wah al-Ḥaq, 1432H), 26.

والحضاري، وبيّن القضايا الجوهرية التي ترتكز عليها العقيدة والتي تتمثل في الربوبية والعبودية، والاهتمام بهاتين القضيتين يؤتي ثماره في واقع الحياة ويساهم في نجاح عملية البناء، وإمعانا في بيان أهمية العقيدة (وبالخصوص الحاكمية) علّق سيّد نجاح المنهج القرآني في بناء الإنسان والحضارة بشرط واحد؛ وهو أن يتم اتباعه في جميع المراحل، ولا يستمد من منهج آخر غير منهج الله تعالى.

وقد بيّن سيّد دور العقيدة وأهميتها في البناء وذكر حججا منطقية وعقلية تجعل البناء العقدي أساس كلّ بناء، على رأس تلك الحجج أنّ العقيدة تُعنى بتصحيح المفاهيم والتصورات حول قضايا كبرى، فإذا استقام تصور الإنسان وصلحت مفاهيمه فإنّه يصبح مهيئا للبناء، وبالتالي فإنّ عملية البناء ستقوم على أسس سليمة وصحيحة، ولو تم إهمال هذا الجانب أو الشروع بغيره فإن عملية البناء ستفشل –لا محالة–. ولم يكتفِ سيّد بذكر أهمية العقيدة وثمارها وأولويتها في البناء فحسب، بل بيّن منهج القرآن الكريم الفعال والمتميز في بناء العقيدة، والذي يقوم أساسا على مخاطبة فطرة الإنسان وعقله وقلبه بما في ذاته وما حوله من المخلوقات. كما شدّد على ضرورة اجتناب طريقة الفلاسفة والمتكلمين القائمة على الجدل والتعقيد، والتي لا تؤتي ثمارها لأنها طريقة جافة وميتة يمجها العقل والقلب.

الجانب الروحي

سيتطرق الباحث في هذا العنصر إلى الجانب الروحي في الظلال، من خلال تعريفه وبيان أهميته، ودوره في عملية البناء، وآليات المنهج القرآني في بناء الجانب الروحي.

أولا: تعريف الروح: في اللغة: قال ابن فارس: "الراء والواو والحاء أصلٌ كبير مطّرد، يدلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطّراد. وأصل [ذلك] كلِّه الرِّيح. وأصل الياء في الريح الواو، وإنّما قلبت ياءً لكسرة ما قبلها. فالرُّوح رُوح الإنسان، وإنّما هو مشتق من الرِّيح، وكذلك الباب كلّه"[43]. وجاء في لسان العرب: "والروح بالضم في كلام العرب: النفخ، سمي روحا؛ لأنه ريح يخرج من الروح"[44].

الروح في الاصطلاح: عرّفها الجرجاني بقوله: "الروح الإنساني هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيواني نازل من عالم الأمر تعجز العقول عن إدراك كنهه وتلك الروح قد تكون مجردة وقد تكون منطبقة في البدن"[45]. عرّفها محمد قطب بأنها: "تلك الطاقة المجهولة التي لانعرف كنهها ولا طريقة عملها، هي وسيلتنا للاتصال بالله"[46]. وهي: "محرك الإنسان نحو تحقيق أهدافه. وقد فطر الإنسان على الإيمان بوحدانية الله وألوهيته،

---

[43] Ibn Fāris, *Mu'jam Maqāyīs al-Lughah*, vol. 2, 545.

[44] Muḥammad ibn Mukram ibn Manẓūr, *Lisān al-'Arab* (Beirut: Dār Ṣādir, n.d), vol. 2, 455.

[45] 'Ali bin Muḥammad al-Jurjānī, *al-Ta'rīfāt* (Beirut: Dār al-Kitāb al-'Arabī, 1405H), vol. 1, 150.

[46] Muḥammad Quṭb, *Manhaj al-Tarbiyyah al-Islāmiyyah* (Cairo: Dār al-Shurūq, 1414H, 1993), vol. 1, 40.

ولا يفسد فطرته الإنسانية إلا عامل خارجي عنها، وأن طبيعته الإنسانية طبيعة مزدوجة، فقد خلق الإنسان من مادة وروح باستعدادات متساوية للخير والشر"[47]. فالبناء الروحي يُعنى بتزكية النفس البشرية وتطهيرها من الأدناس بغرض ربطها بالله تعالى وتقوية صلتها به.

ثانيا: تعريف الجانب الروحي وأهميته: يرى سيّد أن الجانب الروحي من أهم الجوانب التي يركز عليها القرآن الكريم في البناء، والمتمثل في صلة الإنسان بربه، وعلاقته به ومدى الاستمداد منه، والاستعانة به؛ إذ إن ظروف الحياة وملابساتها كثيرا ما تصرف الإنسان عما يعتقده من أفكار وتصورات وعما يدعو إليه الناس. فصلة الإنسان بربه هي التي تعصمه من الانحراف عن التصورات التي يعتقدها وتكفل له الالتزام بها في واقع الحياة.

ويعلل سيد ذلك بكون الإنسان في أصل خلقته مخلوقا ضعيفا وكائنا فانيا، ومهما بلغت قوته فإنه يبقى ضعيفا لا يقدر – وحده– على مواجهة العوائق والمفسدات المتمثلة في قوى الشّر والإغواء لأنها أقوى منه، وحتى لو قاومها مرة أو مرتين أو أكثر فإنه في نهاية المطاف سيفشل ويخسر الصراع، أما إذا اتصل بالقوة الأزلية الخالدة وركن إليها فإنه سيكون حينئذ قويا على كل ذي قوة،

[47] Al-Sayyid ʻAṭif, *Kitāb al-Tarbiyyah al-Islāmiyyah : ʾUṣūluhā wa Manhajuhā wa Muʾalimuhā* (Cairo: Dār al-Fikr al-ʻArabī li al-Ṭibāʻah wa an-Nashr wa at-Tawzīʻ, 2008), 38.

وسيكون قادرا على تخطي ضعفه، ومواجهة شهواته ونزواته، كما سيكون قادرا على مواجهة قوى العوائق والمفسدات[48].

"والروح، وهي أشرف ما في الإنسان لأنها نفخة من الله، لا بد لها من تربية تستهدف تيسير السبيل أمامها لمعرفة الله تعالى وتعويدها وتدريبها على القيام بأعباء العبودية له سبحانه ... وإن إهمال تربية الروح أو التقصير فيها إفساد للإنسان كله روحه وعقله وجسده وكيانه الاجتماعي كله لأن الروح كما قلنا أهم ما في الإنسان"[49].

ثالثا: دور الجانب الروحي في عملية البناء: ويرى سيّد أن أهم ما يمد الإنسان بالقوة ويعينه في معالجة التكاليف والواجبات الشاقة، الارتباط الشديد بالله –تعالى– والركون إليه والاستعانة به والثقة بقوته وقدرته، فهذا هو السبيل الوحيد الذي يغذي الإنسان بالقوة، أما غيره فلا ينفع ولا يجدي[50]، وللبناء الروحي دور محوري في تثبيت الإنسان على ممارسة وظيفة الاستخلاف وإقرار منهج الله – تعالى–، فلذلك كان القرآن الكريم كثير التركيز على التعبئة الروحية للجماعة المسلمة الأولى حين كانت تسير في هذا الطريق الصعب الطويل، وحين كانت تلاقي الإحن والمصائب وتتعرض لشتى

[48] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 68.
[49] Qutaybah 'Abbās Ḥamad Ḥabīb al-Shallāl, *al-Fikr al-Tarbawī al-Islāmī al-Mu'āṣir wa Subul Taf'īlih* (Jordan: Dār al-Ḥamid li al-Nashr wa al-Tawzī', 1434H, 2013), 172.
[50] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 725.

الابتلاءات في المال والنفس والثمرات، فكان في هذا كلّه يذكرهم بضرورة اللجوء إلى الله –تعالى– وتوثيق الصلة به[51].

ويرى سيّد أن البناء الروحي يقوم أساسا على تزكية النفس وتطهيرها، وأن هذه التزكية ضرورية للنصر في العقبات التي تواجه الفرد والجماعة المسلمة، فلا ينبغي الاستهانة بالتعبئة الروحية، وبالأثر الذي يترتب عليها، فلقد أثبتت التجارب أنّ التعبئة الروحية هي السلاح الأول الذي ينتصر بسببه المسلمون، إذ لا ينفع –في شدّة السّاعة– سلاح يحمله جندي هشّ البناء الروحي، ثمّ يستدل لذلك بما أمر الله –تعالى– به جماعة مسلمة عاشت ظروفا مشابهة وهي قصة موسى –عليه السلام– وقومه في مواجهة الطاغية فرعون، قال –تعالى–: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 87).

---

[51] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 143, 145, 146.

ويقول الأصفهاني في سياق بيان أهمية الجانب الروحي وأثره على ممارسة الإنسان لدوره الوظيفي: "لا يصلح لخلافة الله، ولا يكمل لعبادته، وعمارة أرضه، إلا من كان طاهر النفس، قد أزيل رجسها ونجسها، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة، لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة، وإياها قصد –تعالى–: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وإنما لم يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس، لأن الخلافة هي الاقتداء به –تعالى– على الطاقة البشرية في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل.. ولهذا قيل من طابت نفسه طاب عمله، ومن خبثت نفسه خبث عمله، وقال –عليه الصلاة والسلام–: المؤمن أطيب من عمله، والكافر أخبث من عمله".

See: al-Rāghib al-Aṣfahanī, *al-Dharī'ah ilā Makārim al-Sharī'ah*, (Cairo: Dār al-Salām, 2007), 20.

فهذه تجربة حية يعرضها الله –عزَّ وجلّ– على الجماعة المؤمنة للتأكيد على أهمية البناء الروحي –للأفراد والجماعات– في الثبات على الطريق وتحقيق النّصر، وذلك حتى تحذو حذوها في تزكية النفس والاعتناء ببنائها الروحي لتكون قادرة على النهوض بمهمتها وأداء دورها[52]. وزيادة على ذلك، فإن النّصر لا يتوقف على العدد والعدّة، وإنّما يتوقف أولا وآخرا على مدى ارتباط القلوب واتصالها بقوّة الله –تعالى– التي لا تعجزها قوّة، وهذا ما عاشته الجماعة المسلمة في أرض الواقع في غزوة بدر الكبرى، حين كانت ضعيفة العدّة المادية بينما كان عدوها قويا، غير أنها لما كانت شديدة الصّلة بالله –عز وجلّ– قويّة البناء الروحي انتصرت على عدوها[53].

وفي المقابل، يذكر سيّد أن هشاشة البناء الروحي –أو غيابه– تؤثر سلبا على الإنسان، وتتسبب في هزيمته، ذلك أنّ نفسه تضعف وتتزعزع، ويفقد ثقته بها، وتضعف علاقته بربه، ويتعثر فيصبح فريسة سهلة للشيطان يزيده إغراقا في المعاصي ويبعده عن ربّه. وهذا ما حصل لطائفة من المسلمين حين ارتكبوا معصية زعزعت بناءهم الروحي، فوجد الشيطان إليهم في ذلك مدخلا فاستزلهم، فضعفوا وفرّوا من أرض المعركة فهزموا، قال –تعالى–: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ

[52] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1816.
[53] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1816.

يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا. وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: 155)[54].

ولقد أُمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في مواضع كثيرة بالاتصال بالله –تعالى–، واستمداد العون منه، فقال –تعالى–: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ، عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً، وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً﴾ (الإسراء: 78، 80). كما أُمر –والأنبياء معه جميعا– أن يتخذوا الله –تعالى– وليا لهم ويركنوا إليه ويعتمدوا عليه ويجعلوا شعارهم: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: 196)، فالاتصال بالله –عز وجلّ– وحده والانقطاع عمن سواه هو الذي يمكنهم من أداء مهمتهم التي أنيطت بهم، وهذا يؤكد أهمية بناء الجانب الروحي ومحوريته، حتى إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والأنبياء معه أمروا بالاعتناء به[55].

رابعا: آليات بناء الجانب الروحي: يرى سيّد أنّ العبادات من أعظم ما يؤسس للبناء الروحي للإنسان؛ لأنها "ترفع شعوره

[54] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 497.

[55] Quṭb, *Fī Zilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1416; vol. 4, 2246; vol. 6, 3746; Mafhūm al-Tazkiyyah fī al-Qur'ān, al-Ma'had al-'Ālamī li al-Fikr al-Islāmī, retrieved 1st August 2019, http://www.epistemeg.com/pix/pdf_228.pdf

وضميره، وترفع نشاطه وعمله، وتنظف وسائله وأدواته"[56]. وهي الزاد الذي يعينه على السير في الطريق إلى ربّه، فمن خلال العبادة يتصل الإنسان بخالقه، وبالاتصال بخالقه يتطهر قلبه ويتزكى، ويتلقى الزّاد والعون، وبذلك الاتصال يتسامى الإنسان على الناس والمجتمع والبيئة من حوله، فلا تؤثر فيه تقاليدهم وأعرافهم بل يشعر أنه أهدى وأعلى منهم، وأنه جدير بالتأثير فيهم وقيادتهم إلى الصراط المستقيم والنور المبين الذي يعيش فيه، لا أن يقودوه إلى الظلمات والجاهلية التي يعيشون فيها[57]. ومن أعظم العبادات التي تؤسس للجانب الروحي في الإنسان ما يلي:

أ- الصلاة: تكمن قيمة الصلاة في كونها أقرب الصلات إلى الله -عز وجلّ-، فهي الصلة المباشرة والظاهرة بين العبد وربه، وتعتبر وسيلة فعالة وعنصرا مهما لتربية النفس البشرية والشخصية الإنسانية، فبها تزكو النفس وتتطهر، إذ إن من أبرز ثمرات أدائها على وجهها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، فالمرء يستحيي أن يقف بين يدي الله -عزّ وجلّ- بكبائر الذنوب والفواحش، يقول سيد قطب حول إقامة الصلاة وأثرها: "إقامة الصلاة، لا مجرد أداء الصلاة، إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب، وعنصرا تهذيبيا

[56] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 208.
[57] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 142; vol. 5, 2861.

وتربويا وفق المنهج الرباني القويم، وناهيا عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي اللّه بحصيلة من الفحشاء والمنكر!"[58].

فالصلاة مصدر قوة للضمير، وهي في نفس الوقت مصدر تحرج وتقوى، تجعل الإنسان رباني التصور والشّعور والسّلوك، قال سيد: "«وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ» .. فيتجهون بالعبادة للّه وحده، ويرتفعون بهذا عن عبادة العباد، وعبادة الأشياء. يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود، ويحنون جباههم للّه لا للعبيد، والقلب الذي يسجد للّه حقا، ويتصل به على مدار الليل والنهار، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق. وهذا كله مصدر قوة للضمير، كما أنه مصدر تحرج وتقوى، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية، وجعلها ربانية التصور، ربانية الشعور، ربانية السلوك"[59].

والصلاة صلةٌ بين الإنسان الضعيف والخالق القادر، يستمد منها القوّة والمدد والزاد في سيره إلى الله —تعالى–؛ ولذلك كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يفزع إليها إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله –تعالى– ويستمد منه العون، وكان إذا اشتد حاله يقول: "أرحنا بها يا

[58] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 857; vol. 4, 2058; vol. 5, 2738.
[59] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 40; Ibn ʿĀshūr, *al-Taḥrīr wa al-Tanwīr*, vol. 1, 456; vol. 2, 444; vol. 11, 313; vol. 17, 81; vol. 20, 177.

بلال"[60]، والصلاة من أعظم الآليات التي تُمكِّن الفرد من القيام بالدور الذي كُلِّفَ به، فلما كلّف النبي –صلى الله عليه وسلم– بالمهمة الكبرى أرشده الله –تعالى– إلى الإعداد لهذا التكليف الثقيل بالآليات والوسائل الإلهية المضمونة التي تمكنه من النهوض بأعباء هذا التكليف، وتتمثل هذه الوسائل في الصلاة وقراءة القرآن الكريم، فقال –تعالى–: ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمّل: 1- 5).

فكما قال سيّد: "إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة، حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئا وشمس العمر تميل للغروب، حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا، ولا شعاع في الأفق ولا معلم في

60

عن سالم بن الجعد أنّ رجلا من خزاعة قال: ليتني صليت فاسترحت، فكأنّهم عابوا عليه ذلك، فقال: سمعت رسول الله –صلى الله وسلّم– يقول: "يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها".

See: Abū Dawūd al-Sijistānī, *Sunan Abī Dawūd*, taḥqīq: Muḥy al-Dīn ʿAbd al-Ḥamīd (Beirut: Dār al-Fikr, n.d), Kitāb al-Ādāb, Bāb al-ʿAtamah, vol. 2, No: 4985, 715,.

الطريق .. هنا تبدو قيمة الصلاة.. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية. إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض، إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود .. ومن هنا كان رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – إذا كان في الشدة قال: «أرحنا بها يا بلال» .. ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء باللّه"[61].

كما أنّ الصلاة هي الزاد الذي أُمر النبي –صلى الله عليه وسلم– والطائفة المؤمنة القليلة التي كانت معه بالتزود منه للاستقامة على الطريق والثّبات على الحقّ في مواجهة العوائق؛ لأنها تصلهم بخالقهم الودود، "ولقد علم اللّه أن هذا هو الزاد الذي يبقى حين يفنى كل زاد، والذي يقيم البنية الروحية، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف؛ ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود، القريب المجيب، وينسم عليها نسمة الأنس في وحشتها وعزلتها في تلك الجاهلية النكدة الكنود!"[62].

ومن أعظم ما يؤكد كون الصلاة زاداً للطريق وعدّة في الأوقات العصيبة؛ أنها لم تترك في ساعة الحرب وميدان المعركة، وكيف

[61] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 69, 142; vol. 2, 747; vol. 6, 3744-3745.
[62] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 1932.

تترك وهذا أوان الاستعانة بها، والمؤمن أحوج ما يكون إلى صلته بربه في تلك الحالة، فهي سلاحه الأول وهي له "كالسيف الذي في يده، وهي جنة له كالدرع التي تقيه"[63].

فلما كانت الصلاة بتلك الأهمية التي رأينا، لم يحب الله – تعالى– للعبد أن ينقطع عنها في حال من الأحوال ولا ظرف من الظروف مهما كان استثنائيا؛ لأنه يعلم ضرورتها للإنسان، وشدّة حاجته إليها، قال في الظلال: " إنها هذه الصلة بين العبد والرب، الصلة التي لا يحب اللّه للعبد أن ينقطع عنها؛ لأنه –سبحانه– يعلم ضرورتها لهذا العبد. فاللّه سبحانه غني عن العالمين، ولا يناله من عبادة العباد شيء، إلا صلاحهم هم، وإلا ما يجدون في الصلاة والاتصال باللّه، من العون على تكاليفهم، والاسترواح لقلوبهم، والاطمئنان لأرواحهم، والإشراق في كيانهم والشعور بأنهم في كنف اللّه، وقربه، ورعايته، بالطريقة التي تصلح لفطرتهم. واللّه أعلم بفطرتهم هذه، وبما يصلح لها وما يصلحها، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير"[64].

ب– القرآن الكريم: ومما يخفف مشاق الطريق ويعين على السير فيه الإقبالُ على القرآن الكريم والإنصاتُ إليه وترتيله، قال — تعالى– في بيان الوسائل التي تعين على النهوض بأعباء التكاليف

[63] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 258, 565; vol. 2, 747-748.
[64] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 670-671.

والقيام بها: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: 4.)[65]. ويبين سيّد أهمية القرآن الكريم وأثره الكبير والعجيب في النفوس التي تصغي إليه وتقبل عليه بقوله: "إن الناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن، وإن الآية الواحدة لتصنع أحيانا في النفس –حين تستمع لها وتنصت– أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤية والإدراك، والطمأنينة والراحة، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة.. مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه! وإن العكوف على هذا القرآن –في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم!– لينشيء في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة ومن الحرارة والحيوية والانطلاق! ومن الإيجابية والعزم والتصميم ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب!"[66].

جـ– الذكر: يبيّن سيّد ماهية الذكر وحقيقته وأثره على الإنسان عند قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: 152)، فيقول: "وذكر اللّه ليس لفظا باللسان، إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه، والشعور باللّه ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثرا ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى، وإلى رؤية اللّه وحده ولا شيء غيره لمن يهبه اللّه الوصول ويذيقه حلاوة اللقاء"[67].

[65] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1334.
[66] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1425-1426.
[67] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 140.

والذكر تربية للنفس وإعداد لها، وتطهير للقلب وتزكية له، وصلة بالله –عزَّ وجلّ– مصدر القوة والقدرة، والزاد المضمون للطريق إلى الله –تعالى–، قال –عزّ وجلّ–: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (الإنسان: 25، 26) فعند تفسيره لهذه الآية يقول: "هذا هو الزاد. اذكر اسم ربك في الصباح والمساء، واسجد له بالليل وسبحه طويلا.. إنه الاتصال بالمصدر الذي نزّل عليك القرآن، وكلفك الدعوة، هو ينبوع القوّة ومصدر الزاد والمدد.. الاتصال به ذكرا وعبادة ودعاء وتسبيحا.. ليلا طويلا.. فالطريق طويل، والعبء ثقيل. ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير. وهو هناك، حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء، وفي تطلع وفي أنس، تفيض منه الراحة على التعب والضنى، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة. وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل عظمة التكليف، وضخامة الأمانة.

فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من أشواك الطريق! إن اللّه رحيم، كلف عبده الدعوة، ونزل عليه القرآن، وعرف متاعب العبء، وأشواك الطريق. فلم يدع نبيه – صلى اللّه عليه وسلم – بلا عون أو مدد. وهذا هو المدد الذي يعلم – سبحانه – أنه هو الزاد الحقيقي الصالح لهذه الرحلة المضنية في ذلك الطريق الشائك .. وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى اللّه في كل أرض وفي كل جيل. فهي دعوة

واحدة. ملابساتها واحدة. وموقف الباطل منها واحد ، وأسباب هذا الموقف واحدة. ووسائل الباطل هي ذاتها وسائله.

فلتكن وسائل الحق هي الوسائل التي علم اللّه أنها وسائل هذا الطريق. والاستمداد من اللّه والاستعانة بالدعاء والتسبيح – ليلا طويلا – هي الزاد المضمون لهذا الطريق .. إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق"[68].

فالذكر يمكِّن الإنسان من الاستحضار الدائم لمعية الله –تعالى–، ومراقبته في السّر والعلن، وقد نهى الله –عزَّ وجلَّ– الإنسان عن الغفلة عن الذكر فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ، وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ (الأعراف: 205) فـ"إنه زاد الطريق، وأدب العبادة، ومنهج المقربين الموصولين"[69]، فالعبد أحوج إلى البقاء على اتصال بربه، ليتغلب على نوازغ الشياطين، قال –تعالى–: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (فصّلت: 36)[70]. ومن أعظم أنواع الذكر الاستغفار، وتتمثل أهميته في أنه يردّ المرء إلى ربّه، ويقوي صلته به، ويغلق الثغرة التي يدخل منها الشّيطان، فيضل الإنسان ويزله، ويحرص على قطع العلاقة بينه وبين ربه[71].

[68] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 6, 3785-3786.
[69] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1334.
[70] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1426-1428; vol. 5, 3087.
[71] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 497.

يقول سيّد "خذ زاد الطريق: «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ». هذا هو الزاد، في طريق الصبر الطويل الشاق، استغفار للذنب، وتسبيح بحمد الرب، والاستغفار المصحوب بالتسبيح وشيك أن يجاب، وهو في ذاته تربية للنفس وإعداد، وتطهير للقلب وزكاة. وهذه هي صورة النصر التي تتم في القلب، فتعقبها الصورة الأخرى في واقع الحياة. واختيار العشي والإبكار، إما كناية عن الوقت كله –فهذان طرفاه– وإما لأنهما آنان يصفو فيهما القلب، ويتسع المجال للتدبر والسياحة مع ذكر اللّه. هذا هو المنهج الذي اختاره اللّه لتوفير عدة الطريق إلى النصر وتهيئة الزاد. ولا بد لكل معركة من عدة ومن زاد.." [72].

د– الصوم: وهو عبادة يتمكن من خلالها المرء من كف قلبه عن التفكير في المعصية، وكف جوارحه عن إتيانها، والاستعلاء على جميع ضرورات الجسد، وهو في غاية الحاجة إليها، ابتغاء مرضات الله –تعالى–، ومن ثمرات هذا الترفع أن يتصل الإنسان بربه –عزَّ وجلّ– وتزكو نفسه وتتطهر، فالغاية الأولى من الصوم هي تهيئة القلوب وإعدادها للتقوى وخشية الله –تعالى–، وهو محوري في تربية النفس وتكوينها، ولذلك شرعه الله –عزَّ وجلّ– للذين من قبلنا، قال –تعالى–: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183). كما أن الحكمة

[72] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 5, 3087.

الكبرى التي ينطوي عليها الصوم هو إعداد الكائن البشري وتهيئته للقيام بدوره العظيم في هذا الوجود، بحيث يكون قادرا على تحمّل مشقات الطريق وعقباته، ويمكنه الترفع عن المغريات والشهوات التي تعرض له في طريقه[73].

يرى الباحث أنّ عرض سيّد للجانب الروحي عرض جيّد وصلته بعملية البناء ظاهرة جليّة، فقد أبرز أهمية هذا الجانب في بناء الإنسان وشدد عليه، لأنّ اتصال الإنسان بربه من أعظم السبل لتزكية النفس وتطهيرها، كما أنّه من أعظم الوسائل التي تدفع الإنسان وتثبته في أداء دوره في الوجود، وتحقق له النصر والغلبة، فلذا هو مطالب بدوام الاتصال بربه لأنه ضعيف بطبعه عاجز عن مواجهة العراقيل. كما بيّن سيّد آليات ووسائل بناء هذا الجانب المهم والمتمثلة أساسا في العبادات من صلاة وتلاوة للقرآن، وذكر وصوم وغيرها من العبادات التي تكفل دوام اتصال الإنسان بربّه.

خامسا: دور العقيدة في بناء الجانب الروحي

يلاحظ الباحث أن الجانب الروحي شديد الصلة بالجانب العقدي الذي هو أساس كل بناء كما أشار إليه سيد، فالعقيدة نفسها هي أساس البناء الروحي إذ إنها تقوم بتطهير النفس وتزكيتها من دنس الكفر والشرك وبذلك تتقوى الصلة بالله تعالى وتتوطد العلاقة به وهذا هو غاية البناء الروحي، ومن أبرز مظاهر دور العقيدة في البناء

[73] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 168, 172.

الروحي هو أن العقيدة الإسلامية تتميز بالوضوح، فوجهة الإنسان الروحية وغايته في التصور الإسلامي محددة وواضحة؛ لا غموض فيها ولا اضطراب أو تناقض، غايته هو الله –تعالى– كما أن القضايا الكبرى المتعلقة بمأتى الإنسان ووظيفته ووجهته وغايته وعلاقته بالكون كلها بالنسبة للمسلم واضحة المعالم ومحسوم أمرها، ولذلك فإنه معصوم من اضطراب التصورات البشرية المنحرفة والتيه والتخبط الذي يعاني منه كثير من البشر، فعبدوا ورجوا وأقبلوا على غير الله– تعالى–، فصاروا مثقلين بتصورات وأفكار منحرفة أرهقتهم وأطالت شقاءهم.

فالجانب الروحي –إذن– يجسد ثمرة العقيدة وماهيتها والمتمثلة في العبودية؛ العلاقة بين الله –تعالى– (الرب) والإنسان (العبد)، فإذا أدرك الإنسان أن الله –تعالى– هو وحده المستحق للعبادة فإنه سيُقبل على عبادته ويستمد منه ويستعين به، فيتقرب إليه بالعبادات والشعائر التي لها خصوصية التزكية والتطهير مثل: الصلاة والزكاة والصوم والأذكار، كما يتقرب إليه بأعمال القلوب مثل: الحب الإخلاص والخوف والرجاء والتوكل واليقين، فمعاني هذه العبادات يستمدها المسلم من العقيدة ثم تثمر الجانب الروحي الذي يهدف إلى تقوية الصلة بينه وبين خالقه.

وزيادة على ذلك، فإن الجانب الروحي عامل هام ومحوري من عوامل الثبات على مبادئ وقيم وتصورات العقيدة، ودافع للالتزام

بها والعمل على نشرها بين الناس والمضي في تجسيدها على الواقع، فإذا غفل المسلم عن الجانب الروحي وغفل عن تزكية نفسه وتقوية الصلة بخالقه فإن قيامه بأعباء العقيدة –لا محالة– سيكون ضعيفا.

الجانب الأخلاقي

يعتبر الجانب الأخلاقي من أهم الجوانب التي يهتم بها المنهج القرآني في بنائه للإنسان على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، لأنّ الأخلاق والسلوكيات هي انعكاس للمعتقدات والتصورات التي يعتقدها الإنسان، فالصلة وثيقة جدا بين التصورات والسلوكيات فلذلك يسعى المنهج القرآني —بعد تصحيح المعتقدات– إلى أن تعكس الأخلاقُ والسلوكياتُ تلك العقيدةَ وتتطابق معها، وفيما يلي بيان لنظرة سيّد للجانب الأخلاقي:

أولا: أهمية العنصر الأخلاقي

يرى سيّد أنّ القرآن الكريم يهتم كثيرا بالعنصر الأخلاقي في الحياة الإنسانية ويمجده، والمتأمل في العقيدة الإسلامية يلاحظ أنّ هذا العنصر بارز وعميق ومتأصل فيها جدا[74]، والأصول التشريعية والتهذيبية للعقيدة تقوم على هذا العنصر، فهي عقيدة تدعو إلى

[74] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2486; Bayzikūb, *al-Ma'ālim al-Tarbawiyyah fī Ẓilāl al-Qur'ān*, 240.

ذكر عبد الله دراز أن الآيات التي تتحدث عن الأخلاق تربو عن 1500 آية.

See: 'Abd al-Allāh Darrāz, D*ustūr al-Akhlāq fī al-Qur'ān al-Karīm*, trans. 'Abd al-Ṣabūr Shāhīn (Beirut: Mu'assasat al-Risālah, n.d.), 10.

النظافة والطهارة والصدق والأمانة والرحمة والعدل والبرّ والوفاء بالعهد، كما تدعو إلى "مطابقة القول للفعل، ومطابقتهما معا للنية والضمير"[75]. وفي المقابل، فإنها تنهى عن ضد ما سبق، من: نقض العهد، والظلم، والتعدي على أعراض الناس وأكل أموالهم بالباطل، وإشاعة الفواحش والمنكرات بأي شكل من الأشكال[76].

أمّا التشريعات فتهدف أساسا إلى حماية العنصر الأخلاقي وصيانته على مستوى الشعور والسلوك، وعلى مستوى الضمير والمجتمع، وعلى مستوى العلاقات بجميع أنواعها: الفردية والجماعية والدولية. وزيادة على ذلك، فإنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يلخّص الهدف من بعثته بقوله: "إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[77]، ولقد وردت عنه –صلى الله عليه وسلم– أحاديث كثيرة تحض على الالتزام بالأخلاق الحميدة والسلوك الحسن، بل كانت سيرته الشخصية المثال الحي والصورة النقية التي تعكس الالتزام العالي بالأخلاق، حتى مدحه الله –عزَّ وجلَّ– فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)، وفي هذا تأكيد لأهمية العنصر الأخلاقي في البناء الإنساني والحضاري[78].

---

[75] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 6, 3656.

[76] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 6, 3656.

[77] Muḥammad bin Ismā'īl al-Bukhārī, *al-Adab al-Mufrad*, ed: Muḥammad Fuād 'Abd al-Bāqī (Beirut: Dār al-Bashā'ir al-Islāmiyyah, 1989), Kitāb Ḥusn al-Khuluq, Bāb Ḥusn al-Khuluq, No: 279, 104.

[78] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2486; vol. 6, 3657-3658.

ويذكر سيّد أن الهدف من البناء الأخلاقي للإنسان، يتمثل في تحقيق إنسانيته العليا، وليصبح أهلا لتكريم الله –تعالى– له، واستخلافه في الأرض، كما أنّه ضمان لحياة بشرية أفضل، هذا على مستوى الحياة الدنيا، أمّا على مستوى الآخرة فهو الفوز بالجنّة[79].

ثانيا: مصدر الأخلاق

يرى سيّد أنّ الأخلاق الإسلامية بصفة عامة ترتكز إلى نظرية ثابتة وهي استحضار أنّ التعامل يكون تعاملا مع الله –عزَّ وجلَّ– في المقام الأول، وذلك بالحرص على ما يرضيه واجتناب ما يسخطه، فهذا هو الباعث الأخلاقي المعتبر، ولذلك فإنّ الأخلاق ثابتة لا تتغير. وبالتالي فإن التعامل في الأخلاق —كالوفاء بالعهد والأمانة– لا يتغيّر حال التعامل مع الناس سواء أكان عدوا أم صديقا، ففي العنصر الأخلاقي لا يُنظر إلى من يتم التعامل معه لأن التعامل هو تعامل مع الله –عزَّ وجلَّ– ابتداء. فليست المصلحة ولا عرف الجماعة ولا الظروف القائمة، ولا البيئة المحيطة هي الباعث على الأخلاق، ذلك أنها تتغير وتتأثر بالهوى فتنحرف، فلذلك كان الباعث الأخلاقي في النظرية الإسلامية للأخلاق قائما أساسا على مقياس ثابت لا يتغير ولا يرتبط بعوامل متغيرة ومتقلبة، يمكن للفرد أو الجماعة الرجوع إليه، ويستمد هذا المقياس قوته وثباته من عند الله – عزَّ وجلَّ–، فالباعث الأخلاقي لا ينبع من الأرض، وإنما مصدره من

[79] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 6, 3657, 3658.

السماء، فلما كانت مستندة إلى هذا الأصل الثابت فإنها لن تتأثر بالعوامل المحيطة بها[80].

ويذكر سيّد أنّ نظرية الأخلاق في الإسلام تختلف كلّ الاختلاف عن النظريات الأخلاقية الأخرى التي تقوم على تصورات البشر وتفكيرهم ومصالحهم وظروفهم، حيث يرى بعضهم أنّ الأخلاق تتبع "العلاقات الاقتصادية والطور الاجتماعي للأمة"، وبالتالي فإنها تتغير وفق تغير تلك العلاقات والأطوار، فيصير الذي يتحكم في أخلاق الناس وسلوكياتهم وقواعد التعامل بينهم من جهة الأخلاق الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية مثل كونهم يعتمدون في عيشهم على الزراعة أو الرعي أو الصناعة. فالأخلاق في نظرة المذاهب الوضعية تفقد صفة الثبات، وهذا لغو وباطل في ظل النظرة الأخلاقية في الإسلام، التي تقيم قاعدة الأخلاق على أساس واحد وثابت لا يتغير وهو إرضاء الله –عزَّ وجلَّ– ورجاء الثواب من عنده، واجتناب سخطه والخوف من عقابه[81].

ويفصل سيّد –عند حديثه عن الوفاء بالعهد– في قضية أنّ الأخلاق ثابتة لكونها تستند إلى أساس ثابت، فيذكر أنّ الله –تعالى– أمر بالوفاء بالعهد "لأنه الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين

[80] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 418; vol. 4, 1917; vol. 6, 3657-3658; Khalīl Qāḍī, *Sayyid Quṭb wa Manhajuh fī Tafsīrih al-Ẓilāl: Dirāsah wa Taḥlīl* (Algeria: Jāmi'at al-Jazā'ir, Kulliyyah al-'Ulūm al-Islāmiyyah, 2002), 129; Bayzikūb, *al-Ma'ālim al-Tarbawiyyah*, 239.

[81] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 1918.

الناس"، ولا يمكن لمجتمع ولا إنسانية أن تقوم عند غياب عنصر الثقة، فقال –تعالى–: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ (النّحل: 91)، فالإسلام يتشدد في هذه القضية ولا يتسامح فيها إطلاقا، لأنها قاعدة الثقة التي تقوم عليها العلاقات، وشنّع على من ينقض العهد. والأمر بالوفاء بالعهد لا يقتصر على الموافق في العقيدة والرأي فحسب، بحيث إذا كان التعامل مع مخالف في الرأي والعقيدة فإنه يجوز –حينئذ– نقض العهد، كلا، بل إنّ الأمر بالوفاء بالعهد يشمل حتى المخالف في العقيدة والرأي، ولا يرى في هذا الاختلاف مسوغا لنقض العهد ولو كان في ذلك مصلحة ظاهرة، "فالعهد مكفول مهما اختلفت العقائد"[82].

وقد روي أنه "كان بين معاوية وملك الروم أمد، فسار إليهم في آخر الأجل. (حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون) فقال له عمر بن عتبة: اللّه أكبر يا معاوية. وفاء لا غدر. سمعت رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم– يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمدها» فرجع معاوية بالجيش. والروايات عن حفظ العهود – مهما تكن المصلحة القريبة في نقضها– متواترة مشهورة"[83]. وفي هذا تأكيد كون الأخلاق في النظرة الإسلامية ثابتة لا تتغير، ولا تختلف من

[82] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2191, 2192.
[83] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2191, 2192.

شخص إلى شخص ولا من مجتمع إلى مجتمع ولا من بيئة إلى أخرى، كما أنها لا تتغير بتغير الظروف، كلا، لأن الباعث الأخلاقي ثابت يتمثل في إرضاء الله –تعالى– واجتناب سخطه.

ثالثا: علاقة الأخلاق بالعقيدة

سبق وذكرنا أن سيّدا يركز على كون الجانب العقدي أساسا لكلّ بناء ومنطلقا له، وهذا يشمل الجانب الأخلاقي كذلك، وسنذكر هنا مثالا واحدا على كيفية ارتباط الجانب الأخلاقي والسلوكي بالعقيدة التي هي القاعدة والمحور الذي تقوم عليه الحياة كلها.

فقد ورد في قوله –تعالى– في سورة الإسراء ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ إلى قوله –تعالى–: ﴿...وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (الإسراء: 23، 39) جملةٌ من الآداب وقواعد السلوك والأخلاق والتكاليف الفردية والاجتماعية. حيث "يبدأ الدرس بالنهي عن الشرك، وبإعلان قضاء اللّه بعبادته وحده. ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف: بر الوالدين، وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل، في غير إسراف ولا تبذير. وتحريم قتل الذرية، وتحريم الزنا، وتحريم القتل. ورعاية مال اليتيم، والوفاء بالعهد، وتوفية الكيل والميزان، والتثبت من الحق، والنهي عن الخيلاء والكبر... وينتهي بالتحذير من الشرك. فإذا الأوامر والنواهي والتكاليف محصورة

بين بدء الدرس وختامه، مشدودة إلى عقيدة التوحيد التي يقوم عليها بناء الحياة."[84].

فيلاحظ أنّ قواعد الأخلاق والآداب ربطت بعروة العقيدة التي هي أوثق عروة، فصُدِّرت بالأمر بعبادة الله –تعالى– وختمت بالنهي عن الإشراك به، وهذا يدل على مدى ارتباط الأخلاق والآداب –وغيرها– بالعقيدة وقيامها على أساسها، فهي صادرة منها وترجع إليها.

ومن أبرز أدوار العقيدة في الجانب الأخلاقي أنها إذا استقرت في نفس المسلم فإنها تدفعه إلى الالتزام بالفضائل والتحلي بمكارم الأخلاق، وزيادة على ذلك فإنها ستقوم مقام الرقيب الداخلي للإنسان حيث تضبط تصرفاته وتزجره عن المعاصي والمنهيات، ظاهرا وباطنا، ولا يمكن لغير العقيدة أن تضبط تصرفات الناس الظاهرة والباطنة، ذلك أن القوانين والتشريعات والعقوبات قد تنجح في ضبط السلوكيات والتصرفات الظاهرة، غير أنها لا تقدر إطلاقا على ضبط السلوكيات الباطنة، لأن هذا من اختصاص العقيدة ووظيفتها فهنا يظهر الدور المحوري الذي تقوم به العقيدة في ضبط أخلاق الإنسان وسلوكياته.

وزيادة على ذلك، يرى سيّد أنّ الأخلاق والآداب هي انعكاس لعقيدة الإنسان، فالذي لا يتحلى بالأخلاق ولا يلتزم بها إنما

[84] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2220.

يزعزع عقيدته في ضميره، كما أنه يشوّه صورة العقيدة في ضمائر الآخرين، فيعطي بذلك مثالا سيّئا عن عقيدته، ويزهد الناس في الإقبال عليها. وفي المقابل، فإن الالتزام الحقيقي بالأخلاق والآداب في التعامل مع الناس يعطي صورة حسنة عن العقيدة ويترك في نفوسهم انطباعا قويا عنها، ما يجعلهم يُقبلون على هذه العقيدة بصدر رحب لِما رأوا من حسن أخلاق معتنقيها ونظافتهم وصدقهم وإخلاصهم في التعامل[85].

ولمّا دعا شعيب –عليه السلام– قومه إلى عقيدة التوحيد، دعاهم إلى قضية جوهرية أخرى والمتمثلة في الأمانة والعدالة في التعامل بينهم، وهي ذات صلة وثيقة بقضية العقيدة حيث تنبثق منها، إذ لا يتصور أن يصدر ممن يعتقد بعقيدة التوحيد تلك الأخلاق السيئة والمعاملات الجائرة من نقص في المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، بل إن المعاملات والأخلاق والآداب التي تنبثق من العقيدة يجب أن تتسم "بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء"[86].

رابعا: آليات البناء الأخلاقي والسلوكي

يعتمد المنهج القرآني في بناء الجانب الأخلاقي والسلوكي على آليات ووسائل متعددة، فهو يهدف إلى تربية الإنسان وحمله على الآداب

[85] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2192.
[86] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 1917.

والأخلاق الحميدة على المستوى الفردي والأسري وعلى مستوى المجتمع. ويرى سيّد أن من أبرز السبل التي يسلكها المنهج القرآني في بناء الأخلاق والسلوك: وقاية النفس من الانحراف الأخلاقي والسلوكي، وتجنيبها أسباب الغواية، كما فعل في قضية الزنا، حيث إن فكرة الوقاية تقوم أساسا على "تضييق فرص الغواية"، وصرف دواعي الفتنة وغلق الطريق أمام المهيجات والمثيرات، فلذلك نجده يعالج هذه القضية بالأمر بالالتزام ببعض الآداب مثل الاستئذان على البيوت حتى لا يقع بصر الإنسان على عورات أصحابها، كما يأمر بغض البصر الذي يعتبر من أشد طرق الفتنة، وينهى النساء عن موقظات الفتنة من تبرج وإبداء الزينة لغير محارمهن، فهذه كلّها إجراءات وقائية "لضمان الطهر والعفاف في عالم الضمير والشعور"[87].

وزيادة على هذه الإجراءات الوقائية، فإن المنهج القرآني يقدم حلولا عملية وذلك من خلال الأمر بسلوك الطرق النظيفة والمشروعة لتحقيق هذه الرغبة الفطرية من خلال الحث على الزواج وتيسيره، والحض على مساعدة الذين يريدون الزواج بقصد الإحصان، وكره الحواجز التي تعرقله مثل المغالاة في المهور، وعلى صعيد آخر، فإنه يوقع أشدّ العقوبات على هذا الانحراف السلوكي الأخلاقي إذا وقع[88].

[87] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2486, 2514.
[88] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 4, 2486, 2514.

فمن خلال ما سبق يتبين أنّ المنهج القرآني لا يرتكز على العقوبات في بناء الفرد والمجتمع النظيفين، ولكن يعتمد في المقام الأول على الوقاية. كما أنه ينوع الوسائل والآليات فأحيانا تشتد حتى تصل إلى العقوبات والحدود، وتلين أحيانا أخرى فتخاطب الوجدان برقة ورأفة[89].

يرى الباحث أنّ آلية الوقاية التي يعتمدها المنهج القرآني في بناء الجانب الخلقي كما أشار إليه سيّد تغطي جانبا معينا من جوانب البناء الأخلاقي ولا تشمله كلّه، حيث إنّ ما ذكره يعتمد على وقاية الإنسان وحمايته من الانحراف الأخلاقي والسلوكي فحسب، وهي مرحلة مهمة، إلا أنه أغفل جانبا آخر مهما وهو تأسيس وبناء الجانب الخلقي، الذي يعتمد على آلية التحلية والتخلية، وهي عملية تقوم على تطهير الذات الإنسانية من الأخلاق المذمومة والسلوكيات السيّئة وتزويدها بالأخلاق الحسنة وفق وسائل معينة[90]. فعملية التحلية والتخلية من أبرز وأهم الوسائل التي يعتمدها المنهج القرآني في بناء الجانب الخلقي، ويضاف إليها الجانب الوقائي الذي أشار إليه سيّد. وما عدا هذه الملاحظة، فإنّ الباحث يرى أنّ تصور سيّد للبناء الخلقي متكامل وشامل ومرتب ترتيبا منطقيا، كما أبرز علاقة الجانب الخلقي بالجانب العقدي وصلته به.

---

[89] *Ibid.*, 2486, 2507.

[90] Jamāl al-Dīn al-Qāsimī, *Maḥāsin al-Ta'wīl* (Beirut: Dār Al-Kutub Al-'Ilmiyyah, 1418), vol. 6, 425.

الجانب العلمي والمعرفي

يرى سيّد أنّ البناء العلمي والمعرفي جزء لا يتجزّأ من عملية البناء الإنساني في المنهج القرآني، فبالعلم والمعرفة يتمكن الإنسان من أداء مهمته المنوطة به في هذا الوجود، وفيما يلي عرض لنظرة سيّد حول البناء العلمي والمعرفي للإنسان وأهميته ودوره في أداء الوظيفة الوجودية مع بيان بعض المسائل المتعلقة به كضوابط العلم والمعرفة وعلاقتهما بالوحي.

أولا: مصدر المعرفة

يرى سيّد أنّ مصدر المعرفة هو الله –تعالى–، "منه يستمدّ الإنسان كلّ ما علم، وكلّ ما يعلم. وكلّ ما يفتح له من أسرار هذا الوجود، ومن أسرار هذه الحياة، فهو من هناك. من ذلك المصدر الواحد، الذي ليس هناك سواه ومنه التعليم والمعرفة. والإنسان يتعلم ما يتعلم، ويعلم ما يعلم.. فمصدر هذا كلّه هو الله الذي خلق والذي علم"[91].

ثانيا: أهمية المعرفة

يرى سيّد أن العلم والمعرفة من مقومات الخلافة في الأرض، فمن خلالهما يستطيع الإنسان معالجة هذه الخلافة، وهو سرّ التكليف الذي به استحقّ آدم –عليه السلام– الخلافة في الأرض، وأن هذه المعرفة تكريم لجنس الإنسان وهي من الأسرار التي يتمكن بها من

[91] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 6, 3939.

الارتفاع على جنس الملائكة، وسرّ المعرفة هذا هو الذي جعل الملائكة يسجدون لآدم وهو تكريم في أرقى صوره[92].

ويوضح سيّد عظم قدر المعرفة وقيمتها الكبيرة في حياة الإنسان، ودورها في القيام بمهمة الاستخلاف من خلال تيسير التواصل بين الناس، وفي ذلك يقول: "ها نحن أولاء نشهد طرفا من ذلك السّر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة. سرّ القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. سرّ القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها —وهي ألفاظ منطوقة– رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كلّ فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يحضر هذا الشّيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه.. الشّأن شأن نخلة فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا باستحضار جسم النّخلة! الشأن شأن جبل. فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بالذهاب إلى الجبل! الشّأن شأن فرد من النّاس فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بتحضير هذا الفرد من النّاس... إنها مشقة هائلة لا تتصور معها حياة! وإنّ الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات"[93].

[92] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 56-57.
[93] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 57.

ثالثا: العلم هو السبيل لممارسة الخلافة[94]

يرى سيّد أنّ الكون الذي يعيش فيه الإنسان يقوم على سنن ونواميس أصيلة، تتمثل في القوانين المودعة فيه والتي يسير وفقها. واكتشاف هذه القوانين والنواميس الكونية مرتبط أساسا بارتقاء الإنسان في سلّم المعرفة ومدى تعمقه فيها، فهو لا يتلقى معلومات مادية جاهزة، بل يجب عليه أن يستخدم عقله الذي منحه الله –عزّ وجلّ– إياه بشتى الطرق من نظر وتجريب وتطبيق. غير أن ما يكتشفه الإنسان –أو يكشف له– من هذه النواميس الكونية يكون في حدود إدراكه المحدود، وبالقدر الذي يحتاجه ويمكنه من النهوض بوظيفته في الوجود، وعمارة الأرض وترقيتها، والانتفاع بخيراتها ومدخراتها. قال –تعالى–: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر: 21)، ويتجلى هذا كلما ترقى الإنسان في سلّم العلم والمعرفة، وكلما اكتشف أسرار هذا الكون وتركيبته.

فبالعلم والمعرفة يتمكن الإنسان من كشف بعض أسرار هذا الكون ونواميسه وسننه الثابتة، التي تساعده في القيام بمهمة الخلافة في الأرض، وهذا يؤكد ضرورة البناء العلمي والمعرفي للإنسان.

[94] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 182, 278; vol. 2, 1119-1120; vol. 4, 2134.

رابعا: حاجة العلم والمعرفة إلى الوحي

يرى سيّد أنّ الله –تعالى– قد وهب الإنسان القدرة على الوقوف على بعض قوانين هذا الكون ونواميسه لكي ينتفع بطاقاته وخيراته في أداء مهمته في الوجود، وتعمير الحياة، إلا أنه لم يمنحه القدرة على معرفة حقائق الكون المطلقة وأسرار الغيب المحيطة به من كلّ النواحي، ومنها ما هو متعلق بذات وكينونة الإنسان نفسه، كالروح والعقل، والغاية من هذا الوجود وغيرها من القضايا الكبرى التي لا يمكن للإنسان أن يقف عليها بمجرّد العلم الذي يكتسبه من التجربة والنظر والبحث. لكن هدى الله –تعالى– –وحده– يكفل له الإجابات الشافية عن جميع القضايا المتعلقة بذاته وعقيدته وتصوره للحياة، والموازين والقيم، والأوضاع والشرائع والأنظمة التي تحكم حياته وتنظم واقعها، ومن ثمّ فإنّ الإنسان –مهما بلغ في العلم والمعرفة– في حاجة ماسّة إلى الوحي، فإذا فاء إليه اهتدى، وإذا أعرض عنه ضلّ[95].

وزيادة على ذلك، فإن سيدا ذكر أنّ العقل أعظم وسيلة لاكتساب العلم والمعرفة، غير أنه لا يعصم الإنسان من الضلال، ولا يهديه إلى اليقين والحقائق الكبرى، كما أنه لا يقوى على مواجهة ضغط الأهواء والشهوات، فلذلك احتاج العقل إلى الوحي والعقيدة ليستند إليهما ويعمل وفق ضوابطهما[96]، فالمنهج القرآني "يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي، وعيوب

[95] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 281; vol. 2, 1132-1133.
[96] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 3, 1209-1210.

الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات. ثم يقيم له الأسس، ويضع له القواعد، التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها –وفق شريعة اللّه– فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك! والعقل بمصاحبة وحي اللّه وهداه بصير، وبترك وحي اللّه وهداه أعمى، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها اللّه للإنسان.. العقل.. إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني.. فلا تضل إذن ولا تطغى.."[97].

خامسا: علاقة العقيدة بالعلم والمعرفة وأثرها فيهما

إن من أبرز ثمرات العلم والمعرفة المتصلين بالعقيدة التوجه بهما إلى الله –تعالى–، فيرى سيّد أن الأصل في العلم —لو سار تحت منهج الله تعالى– أن يقرب الإنسان من خالقه، إذ إنّ الإنسان الذي يبحث في العلم –من خلال النظر في النواميس والقوانين التي تحكم هذا الكوكب وتربطه بالكون الكبير، وملاحظة الوحدة بينها–، يصلُ إلى معرفة خالق هذه القوانين والنواميس[98]، فمن أبرز ثمرات العلم أن يعرف الإنسان ربه ويقبل عليه فيحمده على هذا العلم الذي وهبه إياه ويشكره عليه، كما يجب عليه أن يتصرف فيه وينفقه وفق مراد الله –تعالى–. فبهذا يكون العلم مقربا للإنسان من خالقه[99].

[97] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 2, 1098, 1099.
[98] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 5, 3131.
[99] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 5, 2633-2634, 3042.

ويعتبر سيّد أن التفكّر في خلق هذا الكون وملاحظة إبداع الله –تعالى– في صنعه وتصريفه وتدبيره عبادة وذكرا لله –تعالى–، ويؤكد أنّ العلوم التي تبحث في الكون وتصميمه وسننه، وأسراره.. لو اتصلت بتذكّر الله –عزَّ وجلَّ– خالق هذا الكون واستشعار عظمته وفضله وجلاله لتحولت إلى عبادة وصلاة، ولظهر أثر ذلك في حياة الإنسان الواقعية من خلال استقامتها وتوجهها إلى ربّها[100].

وفي المقابل، يرى سيّد أنّ إغفال العقيدة واستبعادها بقطع الصلة بين الكون وخالقه، وبين العلوم الكونية والحقيقة الأزلية الأبدية يجعل العلم لعنة تحيل حياة الإنسان إلى عذاب وجحيم[101]. حيث إن البشرية كلما ارتقت في العلم تبعد عن الله –تعالى– أشواطا ومراحل وذلك لانقطاع الصلة بينها وبين خالقها، فهي عاجزة عن الوقوف على الغاية من وجودها في هذا الكون، كما أنها عاجزة عن الوقوف على المنهج الذي يربط بينها وبين الوجود من حولها، وزيادة على ذلك، فإنها لا تجد النظام الذي ينسق في تناغم "بين طاقاتها وقواها، وآخرتها ودنياها، وأفرادها وجماعاتها، وواجباتها وحقوقها.. تنسيقا طبيعيا شاملا مريحا."[102].

والعلم بدون عقيدة وإيمان فتنة، ذلك أنّ هذا العلم الظاهري يجعل الإنسان مغترا، إذ يوحي إليه أنه يتحكم في قوى هي

[100] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 545.
[101] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 545.
[102] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 1, 441.

أضخم منه عشرات المرات، وأنه يملك أن يسخرها لنفعه، وبالتالي فإنه يطغى ويغترّ، وينسى أن الذي يجهله من هذا الكون أكثر بكثير من الذي يعلمه، وأن الأشياء التي لا سلطة له عليها أكثر بكثير من تلك التي له عليها سلطة[103].

ويرى سيّد أن العلم الذي يبعد صاحبه عن ربه وينسيه إياه، هو "علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس. وإنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لأنه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضل طريقه إلى الله تعالى"[104]. ويضرب سيّد مثالا للعلم الذي انحرف عن مصدره بحال البشرية اليوم، حيث إنها قطعت في العلم أشواطا كبيرة غير أنّها لم تجن إلا البؤس والشقاء والتحطيم والدمار مثلما حصل في قنبلتي "هيروشيما" و"ناجازاكي"، ذلك أنّ أصحاب هذا العلم لا يذكرون الله –عزّ وجلّ– ولا يتوجهون إليه بهذا العلم[105].

فالعلم إذا كان مرتبطا بالله –تعالى– ومسترشدا بالعقيدة فإنه سيقود الإنسان إلى الغاية الحقيقية التي خلق من أجلها، ويجعل كلّ إنجاز في ميدان العلم خطوة تقربه من الله –تعالى– ويمكنه من عيش حياة سعيدة آمنة ومطمئنة. أما إذا انبتت تلك الصلة فإن الإنسان سيعيش في شقاء وتعاسة وخوف وقلق.

---

[103] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 5, 3101.
[104] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 5, 2633.
[105] Quṭb, *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*, vol. 5, 2633-2634, 3042.

فدور العقيدة في بناء الجانب العلمي والمعرفي يتجلى في مستويات شتى كما سبق عرضه، فعلى مستوى المصدر فإن العقيدة تقرر أن مصدر العلم والمعرفة هو الله –سبحانه وتعالى–. فهذا يُلزم الإنسان أن يستمد من ذلك المصدر حيث إنه كائن محدود لا يمكنه معرفة الحقائق المطلقة والقضايا الكبرى المتعلقة بذاته من مأتى ووظيفة وغاية ووجهة والمتعلقة بالكون وأسراره، إذ إنه لا يمكنه الوقوف عليها بمجرد التجربة والنظر والبحث وهذا هو المستوى الثاني.

أما المستوى الآخر فيتمثل في الاسترشاد بالعقيدة في تنزيل هذه المعرفة وهذا العلم فهي التي تكفل انضباطهما وتقيهما من العيوب والانحرافات، فالعقيدة هي صمام أمان العلم والمعرفة والنظر العقلي، فيثمر هذا الاسترشادُ العلمَ النافعَ الذي تستفيد منه البشرية جمعاء والذي يُمَكِّنُ الإنسانَ من أداء مهمته في الوجود، وتعمير الحياة وفق التصور العقدي.

فإذا رام الإنسان بناء الجانب المعرفي والعلمي خارج إطار العقيدة التي هي صمام الأمان من الانحراف والزيغ والضلال فإنه سيكون بناء هشا ومشوها لا تعيقه عن أداء مهمته في الوجود فحسب، بل تحيل حياة الإنسان فردا وجماعة إلى عذاب وجحيم.

يرى الباحث أنّ عرض سيّد للبناء العلمي والمعرفي عرض متميز، فقد بيّن أهمية هذا الجانب وعلاقته بعملية البناء، فذكر أن البناء العلمي يُمكِّن الإنسان من أداء مهمته المنوطة به في هذا

الوجود. وقرر أنّ مصدر المعرفة هو الله –تعالى– فينبغي التوجه إليه والاستعانة بهديه. كما أشار إلى قضية مهمة جداّ في هذا الباب والتي لها صلة وثيقة بالعقيدة وهي بيان صفة العلم والمعرفة المقصودين، فليس المقصود أيّ علم وأي معرفة، وإنّما العلم الذي يصل الإنسان بمصدره الذي هو الله –عزَّ وجلَّ– ويقربه منه، أي العلم والمعرفة التي تخضع إلى التصور العقدي الذي يوجه الإنسان الوجهة الصحيحة ويجعله يتحقق بصفة العبودية. والعلم الذي هذا صفته –أي الذي يستمد من العقيدة– سيثمر سعادة وطمأنينة وتقدما حقيقيا، أما إذا قطع الإنسان الصلة بين العلم ومصدره فسيصير العلم معول هدم وسيعيش في شقاء واضطراب. وفي الأخير يلاحظ أنّ سيّدا لم يتطرق في حديثه عن الجانب العلمي والمعرفي إلى آليات ووسائل بناء هذا الجانب والتي تعتبر مهمة جدا إذ يتوقف عليها تأسيس هذا الجانب.

من خلال ما سبق عرضه في هذا البحث، يتبين لنا أنّ نظرة سيّد للبناء الإنساني في ضوء المنهج القرآني متكاملة ومتناسقة، حيث إنها شملت أهم جوانب البناء الإنساني والمتمثلة في: العقدي، والروحي، والخلقي، والعلمي، إلا أنّه أغفل جانبا آخر مهما وهو البناء الجسدي والبدني الذي هو الآلة التي يمارس بها الإنسان مهمته في هذا الوجود، والذي نال قسطا لا بأس به من الرعاية والاهتمام في ضوء القرآن الكريم. وفي أثناء حديثه عن جوانب البناء الإنساني

تطرّق للآليات والوسائل الكفيلة ببناء تلك الجوانب إلا في الجانب العلمي فإنه لم يذكرها كما أشار إليه الباحث في موضعه.

ومما تميّزت به نظرة سيّد لجوانب البناء القرآني الإنساني ربطه الدائم والمتواصل لكل جانب من الجوانب بعملية البناء وبيان أهميته وموضعه ودوره في تأهيل الإنسان لممارسة دوره في الوجود، فعلى سبيل المثال بيّن أنّ البناء العقدي أساس كلّ بناء لأنه يُعنى بتصحيح المفاهيم والتصورات، وذكر أنّ البناء الروحي يدفع الإنسان ويحفزه لممارسة الاستخلاف من خلال تزكية النفس وتقوية الصلة بالله —عزَّ وجلَّ–، وأنّ البناء الخلقي هو انعكاس للعقائد والتصورات فلا بد من تطابقهما، وصلاحه يثمر حياة بشرية أفضل على المستوى الفردي والجماعي، وأما البناء العلمي فهو السبيل لممارسة الخلافة فمن خلاله تتكشف السنن الكونية للإنسان.

وزيادة على ذلك، فقد أبرز سيد دور العقيدة في عملية البناء ومحوريتها بالنسبة لبقية الجوانب، حيث قرر حقيقة أنّ العقيدة أساس كلّ بناء، وقد كانت هذه الحقيقة حاضرة في حديثه عن جوانب البناء الإنساني، فكان حريصا على إبراز صلة العقيدة بالجوانب أخرى، كما فعل في الجانب الأخلاقي إذ ذكر أنّ الأخلاق والسلوكيات هي انعكاس للعقيدة التي تقوم على قضية عبودية الإنسان وضرورة التزامه بما تقرره من أخلاق ومبادئ؛ فهي الباعث الأخلاقي المعتبر وليس بواعث أخرى مصلحية اقتصادية أو اجتماعية

ولهذا كانت الأخلاق ثابتة لأنها صادرة من العقيدة، وفي الجانب العلمي ذكر أنّ مصدر العلم والمعرفة هو الله —عزّ وجلّ– وأنّه يجب التوجه إليه والاستعانة بهديه، وضرورة أن يخضع العلم إلى التصور العقدي في القضايا الكبرى المتعلقة بالله –تعالى– والإنسان والكون، وذلك السبيل الوحيد الذي يضمن توجه الإنسان التوجه السليم، وأما الجانب الروحي فهو تجسيد لثمرة العقيدة وماهيتها والمتمثلة في العبودية؛ وتقوية الصلة بين الإنسان وخالقه.

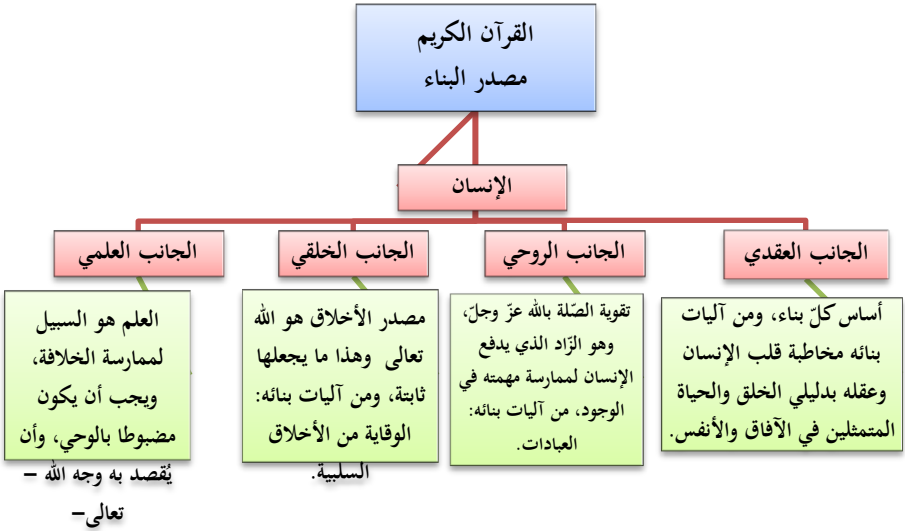

مخطط توضيحي لجوانب البناء القرآني للإنسان في تفسير الظلال

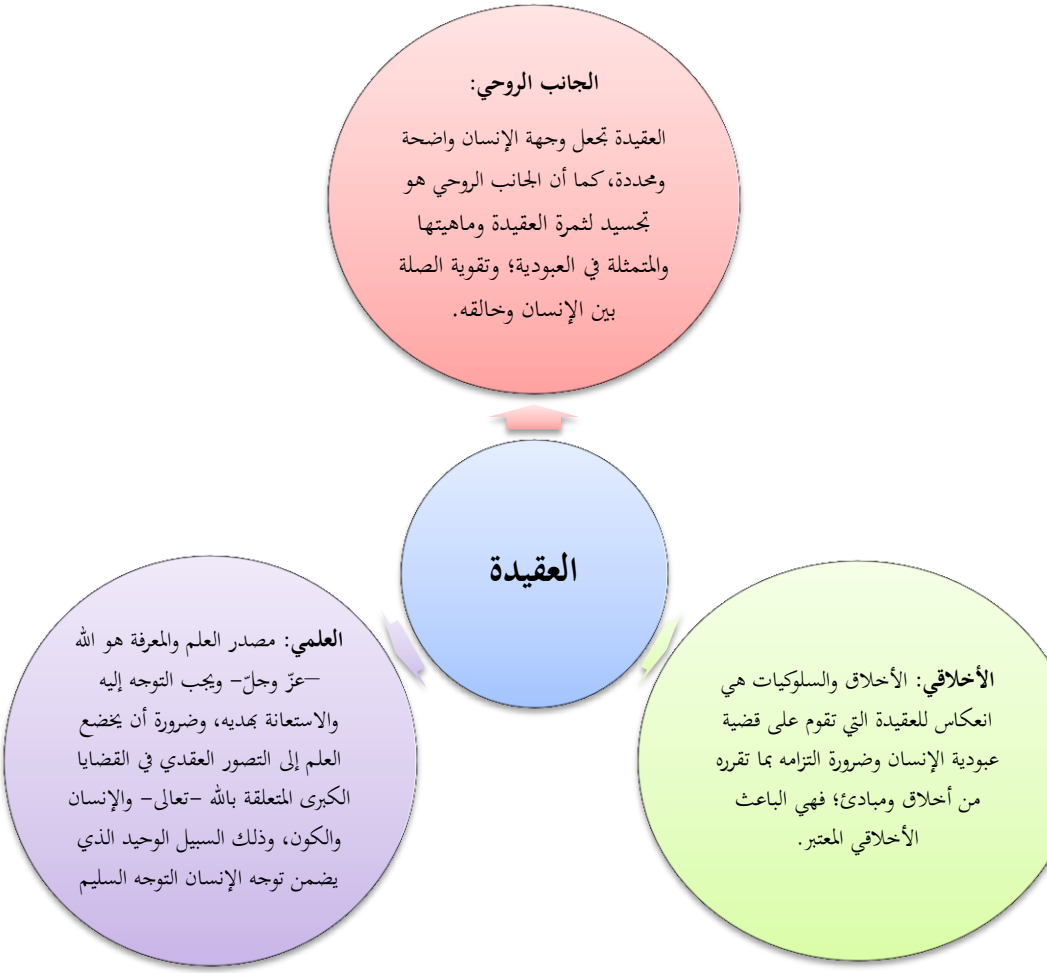

مخطط توضيحي لعلاقة العقيدة ودورها في جوانب البناء الإنساني الأخرى

الخاتمة

توصل الباحث من خلال هذه الدراسة إلى أن جوانب البناء القرآني للإنسان وآلياته في تفسير "الظلال" تتمثل فيما يلي:

– أن جوانب البناء الإنساني تتمثل في: الجانب العقدي والروحي والخلقي والمعرفي، ولكل جانب آليات تبنيه وتؤسسه.

– أن البناء العقدي هو أهم جوانب البناء الإنساني، إذ تنبني عليه بقيّة الجوانب الإنسانية والحضارية، فلذلك كان أولَ جانب بدأ به المنهج القرآني في البناء، وركّز عليه كثيرا لأنّ بصلاح العقيدة ومتانتها تصلح الجوانب الأخرى صلاحا تلقائيا، كما أن نجاح المنهج القرآني في البناء معلق بشرط واحد وهو أن يتم الالتزام به التزاما كليا وأن لا يستمد من غيره من المناهج (وهذا من أهم مسلتزمات الحاكمية)؛ فدور العقيدة في عملية البناء القرآني للإنسان مركزي ومحوري.

– أن الجانب الروحي يتمثل في صلة الإنسان بربه، وعلاقته به ومدى الاستمداد منه، وهو يقوم أساسا على تزكية النفس وتطهيرها، كما أن له دوراً محورياً في تثبيت الإنسان على ممارسة وظيفة الاستخلاف وإقرار منهج الله –تعالى–.

–أن العنصر الأخلاقي يقوم أساسا على أنّ التعامل مع الله –عزَّ وجلَّ–، بمعنى أن الباعث الأخلاقي ليس هو المصلحةُ ولا عوامل أخرى، وإنما إرضاء الله –تعالى– واجتناب سخطه، فهذا الباعث يتَّسم بالثبات والاستمرارية.

– أن الجانب المعرفي مهم جدا إذ به يتمكن الإنسان من معرفة نواميس الكون وبعض أسراره التي تساعده في ممارسة وظيفة الخلافة، غير أنّ المنهج القرآني يحرص على ربط المعرفة بالوحي لمحدوديتها وقصورها عن إدراك الغايات الكبرى في الكون.

– أن بين هذه الجوانب تكاملا وترابطا مع تفاوت في الأهمية والأولوية في البناء.

– أن للعقيدة دورا بارزا ومحوريا في عملية البناء بالنسبة لبقية الجوانب، فهي أساس كلّ بناء، وتتجلى هذه الحقيقة في صلة العقيدة بالجوانب أخرى، ففي الجانب الأخلاقي تعتبر الأخلاق والسلوكيات انعكاسا للعقيدة والباعث الأخلاقي المعتبر، وفي الجانب العلمي يعتبر مصدر العلم والمعرفة هو الله —عزّ وجلّ–، والعقيدة تفرض على الإنسان أن يتوجه إلى الله تعالى ويستعين بهديه، وأما الجانب الروحي فهو تجسيد لثمرة العقيدة وماهيتها والمتمثلة في العبودية؛ وتقوية الصلة بين الإنسان وخالقه.

– أنّ صاحب الظلال –رحمه الله تعالى– لم يذكر جانبا مهما وهو البناء الجسدي والبدني والذي يعتبر الآلة التي يمارس بها الإنسان مهمته في هذا الوجود، وقد نال البناء الجسدي والبدني قسطا لا بأس به من الرعاية والاهتمام في ضوء القرآن الكريم.

References

ʻAbd al-Ḥamīd, ʻAbd Allāh. *Al-Wajīz fī ʻAqīdah al-Ṣalaf al-Ṣāliḥ*. Turkey: Al-Ghurabā', 1435H.

Al-ʻAlāwnah, Aḥmad. *Naẓarāt fī Kitāb al-Aʻlām*. Beirut: al-Maktab al-Islāmī, 1424H, 2003.

Al-Aṣfahanī, al-Rāghib. *Al-Dharīʻah ilā Makārim al-Sharīʻah*. Cairo: Dār al-Salām, 2007.

Al-Aṣfahanī, al-Rāghib. *Ṭafṣīl al-Nash'atayn wa Taḥṣīl al-Saʻādatayn*. Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1408H/1988.

Bayzikūb, ʻAbd al-ʻĀlī. *Al-Maʻālim al-Tarbawiyyah fī Ẓilāl al-Qur'ān li Sayyid Quṭb: Dirāsah Naqdiyyah Taḥlīliyyah*. Malaysia: International Islamic University, 2015.

Al-Bukhārī, Muḥammad bin Ismāʻīl. *Al-Adab al-Mufrad*, taḥqīq: Muḥammad Fuād ʻAbd al-Bāqī. Beirut: Dār Al-Bashā'ir al-Islāmiyyah, 1989.

Al-Būṭī, Muḥammad Saʻīd Ramaḍān. *Manhaj al-Ḥaḍārah al-Insāniyyah fī al-Qurān*. Dimashq: Dār al-Fikr, 1998.

Darrāz, ʻAbd al-Allāh. *Dustūr al-Akhlāq fī al-Qur'ān al-Karīm*, trans. ʻAbd al-Ṣabūr Shāhīn. Beirut: Mu'assasah al-Risālah, n.d.

Ḍumayriyyah, ʻUthmān Jumʻah. *Al-ʻAqīdah al-Islāmiyyah: Al-Manhaj wa al-Arkān wa al-Khaṣā'iṣ*. n.p: Silsilah Daʻwah al-Ḥaq, 1432.

Ibn ʻĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. *Tafsīr al-Taḥrīr wa al-Tanwīr*. Beirut: Mu'assasah al-Tārīkh al-ʻArabī, 2000.

Ibn ʻĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. *Uṣūl al-Niẓām al-Ijtimāʻī*, taḥqīq: Muḥammad al-Ṭāhir al-Musawi. Jordan: Dār al-Nafā'is, 2001.

Ibn Fāris, Abū al-Ḥusayn Aḥmad bin Zakariyyā. *Muʻjam Maqāyīs al-Lughah*, taḥqīq: ʻAbd al-Salām Harūn. Beirut: Dār al-Fikr al-ʻArabī, 1979.

Ibn Manẓūr, Muḥammad bin Mukram. *Lisān al-ʻArab*. Beirut: Dār Ṣādir, n.d.

Al-Jurjānī, ʻAlī bin Muḥammad. *Al-Taʻrīfāt*. Beirut: Dār al-Kitāb al-ʻArabī, 1405H.

Al-Khālidī, Ṣalāḥ ʻAbd al-Fattāḥ. *Al-Manhaj al-Ḥarakī fī Ẓilāl al-Qur'ān*. ʻAmmān: Dār ʻAmmar li al-Nashr wa at-Tawzīʻ, 2000.

Al-Khālidī, Ṣalāḥ ʻAbd al-Fattāḥ. *Madkhal ilā al-Ẓilāl.* Amman: Dār ʻAmmār li al-Nashr wa al-Tawzīʻ, 2000.

Al-Khālidī, Ṣalāḥ ʻAbd al-Fattāḥ. *Sayyid Quṭb al-Shahīd al-Ḥayy*. Turkey: al-Dār al-Shāmiyyah, 2016.

Al-Khālidī, Ṣalāḥ ʻAbd al-Fattāḥ. *Sayyid Quṭb min al-Mīlād ilā al-Istishhād.* Damascus: Dār al-Qalām, al-Dār al-Shāmiyyah, 1994.

Khūjah, Khayr al-Dīn. *Manhaj Sayyid Quṭb fī Fahm Āyāt al-Daʻwah min Khilāl Tafsīrih fī Ẓilāl al-Qur'ān: Sūrah al-Anʻām Namūdhajan*. Malaysia: International Islamic University, 2000.

Madkūr, ʻAbd al-Ḥamīd. *Tamhīd li Dirāsah 'Ilm al-Kalām*. Beirut: Dār al-Hānī li al-Ṭibāʻah wa al-Nashr wa al-Tawzīʻ, 2003.

Mafhūm al-Tazkiyyah fī al-Qur'ān, al-Ma'had al-ʻĀlamī li al-Fikr al-Islāmī, retrieved 1st August 2019, http://www.epistemeg.com/pix/pdf_228.pdf

Muḥammad Nuṣīr, Āminah. *Insāniyyat al-Insān fī al-Islām*. Cairo: Dār al-Shurūq, 1989.

Al-Najjār, ʻAbd al-Majīd. *Dawr al-'Iṣlāḥ al-'Aqdī fī al-Nahḍah al-Islāmiyyah*. n.p.: Majallah Islāmiyyah al-Maʻrifah, 1995.

Qāḍī, Khalīl. *Al-'Aqīdah 'ind Sayyid Quṭb: Al-Manhaj wa al-Maḍāmīn: Dirāsah Taḥlīliyyah Naqdiyyah*. Algeria: Jāmiʻah al-Jazā'ir, Kulliyyah al-ʻUlūm al-Islāmiyyah, 2012.

Qāḍī, Khalīl. *Sayyid Quṭb wa Manhajuhū fī Tafsīrihi al-Ẓilāl: Dirāsah wa Taḥlīl*. Algeria: Jāmiʻah al-Jazāir, Kulliyyah al-ʻUlūm al-Islāmiyyah, 2002.

Al-Qāsimī, Jamāl al-Dīn. *Maḥāsin al-Ta'wīl*. Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmiyyah, 1418H.

Quṭb, Sayyid. *Fī Ẓilāl al-Qur'ān*. Cairo: Dār al-Shurūq, 2013.

Al-Sayyid, ʻAṭif. *Kitāb al-Tarbiyyah al-Islāmiyyah 'Uṣūluhā wa Manhajuhā wa Mu'ālimuhā*. Cairo: Dār al-Fikr al-ʻArabī li al-Ṭibāʻah wa an-Nashr wa al-Tawzīʻ, 2008.

Al-Shallāl, Qutaybah ʻAbbās Ḥamad Ḥabīb. *Al-Fikr al-Tarbawī al-Islāmī al-Muʻāṣir wa Subul Tafʻīlih*. Jordan: Dār al-Ḥamid li al-Nashr wa al-Tawzīʻ, 1434H, 2013.

Al-Sijistānī, Abū Dawūd. *Sunan Abī Dawūd*, taḥqīq: Muḥy al-Dīn ʻAbd al-Ḥamīd. Beirut: Dār al-Fikr, n.d.

Al-Zāmilī, Sulaymān ʻAbd Allāh. *Muqawwimāt al-Shakhṣiyyah al-Islāmiyyah wa Asālīb Binā'ihā fī Fikr Sayyid Quṭb*. Gaza: al-Jāmiʻah al-Islāmiyyah, 2006.

Al-Ziriklī, Khayr al-Dīn. *Al-A'lām*. Beirut: Dār al-ʻIlm li al-Malāyīn, , 15th ed, 2002.